محمد علي قطب

يوسف عليه السلام وامرأة العزيز

مكتبة القرآن
للطبع والنشر والتوزيع
٣ شارع القماش بالفرنساوى - بولاق
القاهرة - ت : ٧٦١٩٦٤ - ٧٦٨٥٩١

جميع الحقوق محفوظة
لمكتبة القرآن

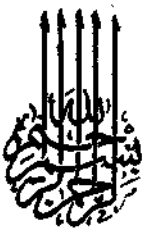

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله ....

نحمده تعالى ونشكره ، ونتوب اليه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا .

ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم ، والذى قص فى كتابه المنزل على نبيه المرسل احسن القصص ،وابلغ المواعظ ،وأحكم الحكم ..

ونشهد أن سيدنا ونبينا « محمداً » عبده ورسوله ، الصادق الوعد الامين ، سيد ولد ادم ، إمام المتقين وخاتم الانبياء والمرسلين ، عليه وعلى اله وصحبه والتابعين ، أفضل الصلاة وازكى التسليم .

وبعد

فإن فى« يوسف ـ عليه السلام ـ وامراة العزيز »لعبره ...

عبرة تتصل بصميم حياة الانسان على الدوام ، لاتتخلف ولاتنقطع ، طالما كانت الذكورة والانوثة ...، وطالما كان صراع الخير والشر ... ،وطالما كان « ابليس » حيا ...، الى أن يرث الله الارض ومن عليها .

(يوسف وامرأة العزيز) ...تناولها المفسرون بكثير من البحث والدرس ، والشرح والتحليل وتوسعوا فيها ماقدر الله تعالى لهم ، وشاء ... ، كما تناولها أيضا كثير من العلماء المتأخرين متأثرين بمقاييس عصرية مستنبطة ، وأطنبوا ما شاء لهم الإطناب ، فلمسوا كثيرا من الجوانب وجلوا كثيرا من المعانى .

ونحن بمشيئة الله ـ تعالى ـ وعونه ، نحاول أن نزيد ونستزيد ، مساهمة منا فى إبراز بعض الجوانب ، مما نراه ضرورة إنسانية وحياتية معاصرة تتصل بصميم وجودنا الإنسانى ، خصوصاً وأننا نحيا فترة زمنية الفتن فيها يردف بعضها بعضاً .

والقصة بحد ذاتها جزئية من حياة الصديق « يوسف » عليه السلام ـ ، حياته المشحونة منذ الطفولة والصبا الى الشباب والرجولة بكثير من المواقف والمشاهد والعبرة للسائلين والراغبين » ورُوّاد الحقيقة .

ولانود أن يكون تناولنا لها مكررا معاداً ،بل فيه كل

الجدة ـ إن شاء الله تعالى ـ ، جدة فى إبراز ما استغمض ، وجده فى الاسلوب ، وجده فى الاستنباط ، من غير حشو تفسيرى ، أو لف ودوران فقهى .

وأرجو الله تعالى أن يوفقنى فى مبتغاى ومطلبى ، وأن ييسر على المسعى ، إنه نعم المولى ونعم المعين .

أخى القارئ

عفواً وعذراً عن كل تقصير ..

ورجاء حاراً فى إبداء الملاحظة الصادقة البناءة ، خدمة للحق ، ومساهمة فى الخير

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يتولانا جميعا ، ويوفقنا لما نحبه ويرضاه ، والسلام عليك .

والحمد لله أولاً وآخراً

المؤلف

الفصل الأول

الحادثة فى القرآن الكريم :

﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامراته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ، وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن اكثر الناس لايعلمون .

ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين . وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت : هيت لك . قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لايفلح الظالمون . ولقد همت به وهم بها لولا أن راى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين . واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب اليم . قال هى راودتنى عن نفسى وشهد شاهد من

أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما راى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين . وقال نسوة فى المدينة امراة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين . فلما سمعت بمكرهن ارسلت اليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم . قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره . ليسجنن وليكونا من الصاغرين . قال : رب السجن أحب الى مما يدعونى اليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين. فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم ﴾

سورة يوسف الآيات: (٢١ ـ ٣٤)

﴿ وقال الملك : ائتونى به ، فلما جاءه الرسول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ...؟ إن ربى بكيدهن عليم .

قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرى نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم ﴾ . سورة يوسف الآيات : (٥٠ ـ ٥٣)

تفسير وبيان :

﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه ... عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾

(لا أود بادئ ذى بدء أن استصحب القارئ العزيز فى متاهات التفسيرات والتأويلات متبعا نهج السلف ، حتى لانقع كلانا فى محذور اللف والدوران ، بل اقصد إلى المعنى قصدا فى استنباط عقلى لايخرج عن إطار حقيقة الكلمات والآيات الشريفة ، والله المستعان)

إن الذى اشتراه من مصر بثمن بخس دراهم معدودة ، توسم فيه الخير ، وما من شك أن صباحة « يوسف » ـ عليه السلام ـ لاتخفى على اللبيب الأريب ، ولقد كان مشتريه من هذا النوع ، إذ هو فى منصب أهله له نضوجه ونباهته ، فقال لامرأته : أحسنى مقامه ونزله ومعاملته ، عسى أن ينفعنا ، والنفع لايتوقف على أمور الخدمة المنزلية وحدها ، وقد يتعداها الى غيرها ، وهذا ما أمله فيه سيده ...، ثم اضاف :﴿ أو نتخذه ولدا ﴾.

﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ... ﴾

فها هو ذا عليه السلام ينتقل بفضل الله تعالى من ظلمة الجب وأيدى النخاسين الى قصر منيف ، ومقام كريم ، ومثوى طيب .

﴿ ولنعلمه من تأويل الاحاديث .. ﴾

وتأويل الاحاديث هو تعبير الرؤيا ، وتعليمه اياه من قبل البارى عز وجل منحة كبرى وعطاء عظيم ، وليكون التأويل من ثم مادة تقلبه وارتقائه وخلاصه ، وعنصر نبوته .

﴿ والله غالب على أمره ... ﴾

لايقهره مستكبر ، ولايتحداه غافل متحجر ، الا وكان الاندحار نهايته ، والقهر والهزيمة مآله ، فالله تعالى هو الغالب وحده ، أمره نافذ و قضاؤه واقع ...

﴿ ولكن اكثر الناس لايعلمون .... ﴾

لأنهم قد استهواهم شيطانهم ، وغرتهم امانيهم ، فظنوا فى انفسهم القدرة ،وفى عقولهم المعرفة، ولكنهم فى الحقيقة والواقع (لايعلمون ...) .

مثل من ؟

مثل : إخوته .... والسيارة ....وامراة العزيز ... وصاحبى السجن ... والملك ...!

﴿ ولما بلغ اشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾

وفى منزل الذى اشتراه من مصر بلغ « يوسف » ـ عليه السلام ـ أشده ، فقد ابتيع غلاما(١)صغيراً ، لم يبلغ مرحلة

---

(١) قال يا بشرى هذا غلام

الفتوة بعد ، وفى مثواه الجديد ، فى بيت العزيز تدرج نضوجا واكتمالا ، بدنا وعقلا وروحا ..، ووهبه الله تعالى فى تلك المرحلة الحكم والعلم ؛

أى حكم وأى علم ؟؟

البصر بالاشياء والاحداث والأشخاص على حقيقتها من غير اختلال فى النظر والادراك ، ثم الحكم الصائب ينطق به لسانه مترجما عما فى قلبه وحسه من نور المعرفة .

والحكم والعلم تميز يناط بالمحسنين ، ويكرمون به من دون الخلق ...

والمحسنون هم الذين يحسنون الصلة بالله تعالى (١) ، صافية قلوبهم ، جلية ذواتهم ، طاهرة أرواحهم ، لم تشبها لعاعة الدنيا ولاطينة الارض ..، منذ الصغر ..، منذ تفتح العين ويقظة الحس على ما يحيط بالفرد ... ، ووعى الأشياء ..،

وإن فى صفاء « يوسف » ـ عليه السلام ـ الصفاء الكلى ...، ما قدره أن يكون من المحسنين منذ الطفولة المبكره ، وقدر له أن يرى أحد عشر كوكباً والشمس

١ـ الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

والقمر يتنزلون جميعا من السماءوالعليـاء...ثم يسجـدون له .

وهـا هـو ذا فى غيـابـة الجب وظلمتـه ....،فى قعره وادناه!!!، كل مايحيـط بـه يـدعو الى اليـأس والقنوط ....، والاستسلام للنهايـة المحتومـة ....، لكنـه فى صفـائـه القلبى والذهنى يتوجه الى الله تعالى بالدعاء ، والأمل بالرحمـة لا يفارقه فيقول :(يـا شـاهـدا غير غـائب ،ويـا قريبـا غير بعيد ، ويا غالبا غير مغلوب ، اجعلى لى من أمرى فرجـا ومخرجا) (١) .

﴿هل جزاء الاحسان الا الاحسان !!! ﴾

لقد أحسن الصلة والظن بربه ـ سبحـانـه ـ ، فـأحسن اليه بالفرج العظيم وبالمكانة المرموقة .

﴿ وراودته التى هو فى بيتهـا عن نفسـه وغلقت الأبواب وقـالت : هيت لـك ! قـال : معـاذ الله إنـه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون ،﴾

---

(١) صيغة دعاء اثر عن « يوسف » ـ عليه السلام وهو فى غيابة الجب ، راوه بعض المفسرين .

صورة سريعة موجزة من غير تطويل ولاتفصيل ، فى اقتضاب أدبى سام ، ومن غير اثارة ولادغدغه ، ليظل القارئ والسامع فى مستوى علوى لا يهبط مع الشهوة واضطرامها الى حيوانية الفعل والحركة .

﴿ وراودته ..﴾

من المفاعلة ، وهى تقتضى التكرار والمعاودة ...

اذا فقد حدث من امراة العزيز أن كررت المحاولة مرات ومرات مع « يوسف »ـ عليه السلام ـ منذ أن تألق شبابه الغض ، وتفجرت رجولته ....، بعد اقل من بضع سنوات من مثواه ومقامه فى بيتها ...

كانت تنحصر وتتوثب وتعتلج كلما خطر أمامها ...، أو وقع نظرها عليه ، وذلك بدافعين : دافع العجز الذى كانت تعانيه من قصور زوجها العزيز ، ودافع الحسن الرجولى الذى كان يتمتع به « يوسف » عليه السلام ـ وحباه به ربه ـ سبحانه ـ وهى فى كليهما فى غيبة عن الضمير الايمانى ،وفجوةعن الله تعالى .

ويلفتنى أنها فى مسعاها الدنىء قد تنكرت ـ تماما ـ لما كان يطمح اليه العزيز فى إيوائه « يوسف » ـ عليه السلام ـ فى بيته ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ... ﴾ .:

وأرجو أن لا تغيب عن ذهن القارئ هذه الصورة ، والفارق بين الشخصيتين : العزيز وامراته ..
ونعود الى المرأة والرجل !!

صحيح أن الرجل فى أغلب الاحيان يكون طالبا للأنثى ، ولكنه يظل من غير توصل طالما أنها فى صدود وامتناع ، أما اذا كانت هى الساعية والمدبرة والفاتنة فما أسرع ما يقع فى أحبولة الشيطان ...

والانثى فى هذا يتلبسها (ابليس) كلية فتكون مصدر الفتنة والكيد ...، لذا قال لها زوجها العزيز ـ كما سيأتى إن شاء الله ـ : ﴿ إنه من كيدكن ... ﴾ .:
(راودته ...) بالكلمة تقطر إغراء ....وراودته بالحركة فى تثن وانعطاف.....، وراودته بالزينة والفتنة .....،ولكنه (عليه السلام)ظل كالطود الشامخ لاتهزه الأعاصير ، لايعبأ بها ولا يلتفت اليها ...

والدارس لنفسية المرأة يدرك أن الصدود يزيدها عنادا واصرارا لأنها تحس فى قرارتها بأن كبرياءها الأنثوى قد ثلم وجرح ، بل طعن فى الصميم ....! فتزيد من محاولاتها وطرح شباكها ، وتجاوز الحدود والسدود ...

وإزاء الموقف الآبى الرافض من « يوسف » عليه السلام - فقدت امراة العزيز صوابها ، وطاش عقلها ، وصممت على بلوغ الحرام ، بأية وسيلة وبأى طريق ...

واغتنمت فرصة غياب الزوج عن الدار ، وغلقت الابواب ....، أبواب القصر كلها ...وتبدت ل« يوسف » ...،ظنا منها أنها أحكمت الخطة والتدبير ، ولم يعد من مجال لتهرب أو فرار ....، وقالت:﴿ هيت لك ... ﴾

دعوة سافرة !!!

فماذا كان جوابه (عليه السلام) ؟

قال : ﴿ معاذ الله ... إنه ربى احسن مثواى ؛ إنه لا يفلح الظالمون ﴾

ومن استعاذ بالله صادق القلب واللسان أعاذه ، وهكذا كان « يوسف »عليه السلام - ، لأنه من عباد الله المخلصين المصطفين ....

وعقب على قوله : ﴿ معاذ الله ﴾ بقوله: ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ... ﴾ ، إنه الله تعالى الذى استنقذنى من الجب ونجانى من الموت ، وحفظنى من الضياع وذل الرق ، وأكرمنى فى مثواى ومقامى ، فكيف اتنكر لكل ذلك بالخطيئة ؟؟!!وتجاوز حدود مانهى عنه إننى اذا من الظالمين ....، والظلم والفلاح على طرفى

نقيض لا يلتقيان و لا يجتمعان ، وأنا راغب فى الفلاح ،دائب السعى اليه بإذن الله .

هذا الرد الكريم والقول الحكيم لم يوقظ فى نفس امراة العزيز ولا أدنى ذره من ضمير ... اذا استحوذ الشيطان على كل جوارحها ، واستبد بشعورها منذ أمد ....، وران على قلبها ....

فازدادت ثورة وهياجاً، واحساسا بالمرارة ...وتجاوزت توزان العقل والجسد !!!﴿ فهمت به ... ﴾ تلقى نفسها عليه ، وتضغطه ... وتحثره فى جهة أو ركن ،

﴿ وهم بها ...﴾

هنا ، سرح المفسرون ـ رحمهم الله ـ سرحات كثيرة ومتشعبه ، وشطحوا شطحات بعيدة ووقع الكثيرون منهم فى شراك الاسرائيليات ، حتى ان بعضهم صور الموقف بدقائقه وتفصيلاته مطلقا لخياله العنان ، ولم يلتزموا جانب الادب الالهى فى الايجاز القرآنى .

وظنوا أن قول الله تعالى:﴿ **ولقد همت به ...** ﴾وقوله :﴿ **وهم** بها ... ﴾يقتضى التناسق الفعلى والتزامن الحركى، انطلاقا من مبدأ (بشرية) « يوسف » ـ عليه السلام ـ لأن الضعف البشرى ازاء المغريات يستسلم ويسترخى،ويفقد كل قدرة على المقاومة وهذا ما

حدث ل « يوسف » ـ عليه السلام ـ ﴿**لولا أن رأى برهان ربه ....**﴾ فارتد عما هم به ، وخلص نجيا ....،وقال بعضهم أيضا بأن (الهم) فى جانب « يوسف » كان الضرب : و الصفع .

وكما وقع المفسرون ـ رحمهم الله ـ فى حبائل الاسرائيليات بالنسبة لتصوير واقعة (الهم) من « يوسف » وقعوا أيضا فى متاهات تصوير (البرهان) وركبوا متن الشطط ونزلوا ب (البرهان) من عليائه الربانى وسموه النورانى الى مادية الصور والاشكال ، ويبدو أن كلمة (رأى) هى التى أوحت لهم بذلك متصورين أن الرؤية تقتصر على العين أداة البصر ....، ولكن ...ماذا يفعلون بالبصيرة ؟ وماذا يقولون فيها ؟

ولم يكن ذلك كله ـ والله أعلم ـ لأن قول امراة العزيز بعد هذا ينفيه نفياً قاطعا ويرده رداً كليا ، اذ قالت لصويحباتها: ﴿ ولقد راودته عن نفسه فماذا فعل ﴿ فاستعصم ..﴾ (١)

---

١ ـ لأن قول الله تعالى :﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ... ﴾يقتضى التغاير وهذا التغاير لا يكون الا من منطلق تغاير مفهوم(الهم) . واختلافه لدى كل من امرأة العزيز ومن يوسف ـ عليه السلام
ف« يوسف » عليه السلام ـ دعا ربه صادقا مخلصا مختارا السجن على الصبوة والجهالة ،﴿ فاستجاب له ربه﴾ ـ سبحانه ـ ،﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ وحفظه من السوء والفاحشة ، ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ سميع لدعاء الصادقين المخلصين ، عليم بحقيقتهم .

اذا ماذا كان (هم) « يوسف »عليه السلام ؟
خاطرة نفسية لم تستغرق زمنا الا بقدر قراءة الكلمة ، لا أكثر .....

وانعطاف حسى بدنى عابر كطرفة العين ، ثم جلاه (البرهان) !!

و(البرهان) ارتفاع بوجدان « يوسف » فرق طفرة الحس العابر ، وبارق من نور النبوة على ظلمة هذه الخاطرة وكسفها ، وتدارك فى الله تعالى لعباده المخلصين .

يؤكد ذلك عندى قوله (عليه السلام)بعد ذلك :﴿ **قال : رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** ﴾ .
﴿ **واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب ، قالت : ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً الا أن يسجن أو عذاب اليم** ﴾ . ؟

هنا : (استبقا الباب) وهناك : (وغلقت الابواب) ؟!

اذا ....فقد حصل الشد والفرار ....، والجذب والانفلات ... فى وقت أطول من وقت (الهم) !!!! اذ تخطى (عليه السلام)أكثر من باب وفتح أكثر من مصراع ....، وانطلق نحو الباب الرئيسى

للدار ، محاولا الخروج النهائى من هذا المثوى والمقام ....الى الله تعالى ، الى حصنه الحصين وملاذه الأمين .

وفى هذا الخضم ﴿ قدت قميصه من دبر ....﴾

﴿ **وألفيا سيدها لدى الباب** ....﴾وجدا زوجها عند الباب قد فتحه ليدخل الدار ، فابتدرته قائلة:﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً الا أن يسجن أو عذاب اليم ﴾ . ؟

لقد صدمته المفاجأة ورعونة المشهد ، وآثاره البادية على الطرفين . وما من شك فىأنها كانت على هيئة منكرة : منظرا ولباسا ولهثاً !!!

وكذلك « يوسف » ـ عليه السلام ـ !

ثم ابتدرت بالدعوى قبل أن ينطق العزيز بحرف ، أو يتفوه بكلمة .

ورد « يوسف » ـ عليه السلام ـ التهمة على نفسه قائلا :

﴿ هى راودتنى عن نفسى ....﴾ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ .

فى براءة وطهـارة وصـدق ....رد « يـوسف » ـ عليـه السـلام ـ الـدعوى قـائلا :﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ دون أن يشفع قـولـه بطلب (كالسجن أو العذاب الاليم اللذين اقترحتهما زيادة فى الافتراء والظلم ....)أو دليل ... أو أى شى آخر ..!

وفى مـوضـوع (الشـاهـد) .... حمـل المفسرون المعنى فـوق مـا يحتمل ، وراحوا يشرقـون ويغربـون ويتحكـون الأقـوال ، وكانـوا فى مـذاهبهم تلـك يحـاولون إضفـاء طـابع المعجزة على المـوقف ظنـا منهم بأنهم إنما يخدمون الحقيقة ...

فقد قال بعضهم : بأنه ـ أى الشـاهـد ـ طفل من أهل امراة العزيز لا يزال فى دور الرضاع، أنطقه الله تعالى فتكلم بما تكلم ـ (وليس ذلك على الله بعزيز) !!!
كما قال البعض الاخر بأنه شيخ من أهلها ، عرف بالحكمـة ، فعرض عليه العزيز الحادثة ، فقال ما قال .

ولا نظن أن الموقف يحتاج الى ركوب الصعب فى انطـاق الرضيع ، كما لا نظن أن العزيز استمع الى دعـوى زوجتـه ورد « يـوسف » ثم استطال بـه الوقت الى أن يـذهب الى الرجل الحكيم يستفتيـه ، أو يستحضره اليه ....
الموقف فيه سخونة وتوتر ....

و(الشاهد) هو الذى يشهد ... ، وأغلب الظن ـ والله أعلم ـ أنه كان مع العزيز لدى الباب ، ضيفا قادما على الدار، وقد استمع الى الطرفين ...، وهاله كذب الزوجة وافتراؤها ، ثم طغيانها فى الحكم المستبق، اذ رأى أن قميص « يوسف » عليه السلام ـ قد تمزق من الخلف ، من دبر ....،وهذه قرينة هروب وتخلص ..، ودليل براءة ، فقال ﴿ **إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين** ﴾ .

﴿ **فلما رأى قميصه قد من دبر قال : إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم** ﴾

وقد كان (العزيز) كما اسلفنا من قبل ـ على درجة عاليه من النضوج والخبرة أهلته لبلوغ منصب رئيس الوزراء أو الوزير الاول ...

بناء عليه لم يشكك فى قول الشاهد بل أخذ به مقتنعا بحيثياته ، ودليله المنطقى ﴿ فلما راى قميصه ـ اى قميص يوسف عليه السلام ـقد من دبر ﴾ نطق بالحكم وفصل الخطاب بين الادعاء الزائف والبراءة الحقيقية وقال بأن الامر كيد ومكر ، ولا يخرج عن هذا الإطار ، ﴿ **إنه من كيدكن ..**﴾

ثم عقب : ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ ...

وهى خلاصة تجربة حياتية واستقراء .....، ولقد أضحت هذه العبارة مع مرور الزمن سمة وعلامة مميزة للجنس الاخر ، فى كثير من الاحيان .

ولكن (العزيز) فى فصل النزاع لم يتوقف عند هذا الحد ، ولم يمض فى الطريق السوى ...،الطريق الذى يجب أن يسلكه من ثلم شرفه وهتكت كرامته ، حسب منطق العدل ، وكذلك فيما يتعلق بالمتهم البرىء ـ « يوسف » عليه السلام ـ فى رد الاعتبار وإنصاف المظلوم ....

بل سلك سبيلا معوجا ....
إذ قال : ﴿ يوسف أعرض عن هذا..... ﴾

اسكت واصمت و لاتتفوه بكلمة واحدة حول هذا الموضوع ، واعتبره كأنه لم يكن واجعله فى طى النسيان ...

وقال لزوجته ﴿ واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾

فلماذا فعل ذلك ؟ وهو من عرفنا نضجه وعقله وخبرته .....، فالاولى به أن يسلك السبيل السوى فى علاج الامر ....؟!

قد نتجاوز عن موضوع الزوجة ، إذ أراد العزيز التستر وعدم الفضيحة ، ولكنا لانستطيع أن نغفل إهدار الحق والبراءة بالنسبة ل « يوسف » ـ عليه السلام ـ ؟!

يقال : إن الانسان ابن البيئة ....
بمعنى أنها تؤثر فى تكوينه كلية ، وتنتجه إنتاجا ، كالثمرة تماما .... وهذا القول فيه كثير من الحقيقة .

و« العزيز » ابن بيئة مترفة ....أرستوقراطيه ...مرفهه ....، تعيش جو القصور بكل فجورها وفسادها ...

وإن فى علو القصور ، وفى ارتفاع أبوابها ، وأسوار حدائقها ، وستائرها التى قد تحجب ماوراءها (حواجز) و(موانع) ....تحول دون نتن رائحة ما ينتشر فى ردهاتها دون الناس أحيانا !!

وصدق المثل الشعبى فى قوله :(اثنان لا يشعر بهما الناس : فجور الغنى ، وموت الفقير) .

وعليه : فإن كلام (العزيز) ليوسف ـ عليه السلام ـ :﴿أعرض عن هذا﴾ ،ولزوجته :﴿استغفرى لذنبك﴾ ،يحيط بها إطار التكتم الذى يحتضن الصورة ، بكل خزيها وضعفها ، وتهافتها .

ولكن ....الى أى مـــدى يمكن للتستر أن يكتم صـوت الحقيقـــة ويقطع أنفاسها ؟!

ليس طويلا ، فهذا مستحيل .

اذ تسرب ريـح نتن الـواقعـة ، ثم انتشر هنـا وهنـاك ، فلغـط بهـا بعض نسوة المـدينـة ، ممن هن فى مستوى امرأة العزيز الاجتماعى ، أو دونه قليلا ، وعلى صلـة وثيقـة بهـا ، ويعرفن كثيرا من أحوالها وخصوصياتها.

وليس حـــديثهن فى واقـع الامر ، ولغطهن ، الا نـوعـاً من ثرثرة (الصـالـونـات) و(الـدردشـــه) ، لأنهن - كما سيـأتى - وقعن فى التجربـة، وذهلن عن أنفسهن حتى ﴿ قطعن أيـديهن ﴾ وســالت دماؤهن من الجراح دون أن يشعرن ، أو يحسسن بأدنى ألم ..

فماذا كان قولهن ؟

﴿ وقال نسوة فى المدينة : امراة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين !!!؟﴾

يا لطيف !!!

﴿ فى ضلال مبين ﴾

هـذا الوصف الصـادر عنهن هو من قبيل التجريـح والغيبـة اللذين الفهما مجتمع الفـارغـات ، ومن قبيل قول القـائـل: (رمتنى بـدائهـا وانسلت) .

﴿ **فلمـا سمعت** ﴾ امراة العـزيـز﴿ **بمكرهن** ﴾وتهجمهن عليهـا ، والنيل منها أرادت أن تتحـداهن وترفع عن نفسهـا كابوس ثرثرتهن ﴿ فأرسلت اليهن ﴾ داعية الى وليمة، كما اعتادت من قبل أن تفعل ، وجهزت (صالونها) بكل وثير من المقاعد والطنافس ﴿ وأعتدت لهن متكئا ﴾ وبسطت فوق الخوان كل شهى من الطعـام والشراب ، فلما حضرت وجلسن وأخذت فى الحديث واللهو و الأكل ﴿ آتت كل واحـدة منهن سكينـاً ﴾ تستخـدمهـا فى تقطيـع أو تقشير مـا يلزم ...

﴿ **وقالت اخر ج عليهن ...**﴾

وحتى لا يلتبس معنى الامر بالخروج وتنفيـذه من قبل « يوسف » ـ عليه السلام ـ ، نبادر فنقول : بأنـه (عليـه السلام) كان لايزال فى خدمـة البيت حتى ذلـك الحين ، وأغلب الظن أن امرأة العزيز قد طلبت منه خـدمـة معينـة تستـدعى حضوره أمـام النسوة ...، حبكا منها لإتمام ما اعتزمته من المكيـدة للنسوة ، والايقـاع بهن ، ورفعـا للمـلامـة ، وإخراسـا لـلألسنـة ، وكبحـا لجمـاح النهش والثرثرة ....

فماذا حدث ؟

﴿ فلما رأينه أكبرنه ....﴾

أخذن به اخذا شديداً ، وشدهن بمرآه ....، وذهلن ذهولا كليا ، ﴿ وقطعن أيديهن ﴾

وأريدك ـ أيها القارئ العزيز ـ أن تلاحظ دقة التعبير القرانى فى قوله تعالى :﴿ وقطعن ﴾ لأن التشديد يفيد المبالغة ، ولم يقل سبحانه ﴿ وقطعن ...﴾ بالتخفيف ....، فالمقصود بيان حالة الذهول القصوى التى انعدم فيها الاحساس بالالم ، أو سيلان دماء هؤلاء النسوة ....

والاطار الكلى للصورة يركز على(الحسن) الذى اعطى ل « يوسف » عليه السلام ـ من بهاء ورونق وجمال ، ورجولة كاملة آسرة تعصف عادة بقلب المراة وتستحوذ عليه ...

مع خفة ووداعة وبراءة ....

لذا ﴿ قلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾

نطقن بلسان الحال والمقال مستغفرات أن يكون هذا المخلوق بشراً ، ثم وصفنه بأنه ملك كريم .....، لأنه كالطيف النورانى سرى مسه الشديد السريع إلى ذاوتهن فامتلكها ..، وفقدن من ثم

كل إحساس بمادية البدن ، لأنهن بأيديهن قطعن أيديهن ولم يشعرن...

عندئذ ابتدرتهن امرأة العزيز و ﴿ وقالت فذلكن الذى لمتننى فيه ...﴾ وصرحت معترفه ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ .
ثم أضافت على مسمع من « يوسف » ـ عليه السلام ـ قائلة : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ﴾ .

ويبدو من السياق القرآنى الكريم أن النسوة اللاتى استضافتهن امراة العزيز حاولن أيضا أن يراودن ـ « يوسف » ـ عليه السلام ـ ،وأبدين كثيراًمن ضروب الاغراء وفنون الإثارة ، مأخوذات بفتنة جماله وحسنه ، وسحر رجولته ، مما جعله يقول ضارعا داعيا : ﴿ قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه والا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾

ولانرى أن نذهب مذهب القائلين : بأن دعاءه ـ عليه السلام ـ كان موقوفا على ما هددته به امرأة العزيز فقط ، أو تخلصا منها وحدها.....، لأنه جمع ولم يفرد ، فهذه قرينه ....،

وقرينة اخرى :

عندما أراد الملك اخراجه من السجن واستخلاصه لنفسه ، قال « يوسف » للرسول : ﴿**ارجع الى ربك فاساله مابال**

النسوه اللاتى قطعن أيديهن ؟ إن ربى بكيدهن عليم .﴾

فأراد الملك التحقيق ، فاستحضر النسوه ، ثم سألهن : ﴿ ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه﴾ ؟

فشهدن بالصدق والحق ، ببراءة« يوسف » ـ عليه السلام ـ وطهارته من كل دنس أو سوء : ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ...﴾

ودخل « يوسف » ـ عليه السلام ـ السجن ...وقضى فيه بضع سنين ، بناء على طواعية العزيز لامرأته واستجابة رغبتها على الرغم من وضوح وظهور براءة « يوسف » واقتناع العزيز بها !!!!؟

وهذه الواقعة بحد ذاتها تعطينا صوره واضحة عن مدى (التحضر) الاجتماعى الذى (ارتقت) اليه طبقة المترفين والحكام آنذاك .....

الصورة ـ الواقعة ـ بكل أبعادها وأشكالها ، بداية ونهاية ....

فى مجون القصور وانحلالها ، وفجور سكانها وأصحابها ، والصلة التى تحكم أهلها وتسيطر على تصرفاتهم ونوعية التفكير السائد فى

محيطهم واستبدادية المرأة وتسلطها ، وخضوع الرجال لإرادتها الجامحة ، ورغبتها المدمرة ....

ونحن لو أغمضنا العين قليلا ، وسرحنا بالفكر سرحة زمنية بعيدة ، وانتقلنا بالخيال نقله واسعة عبر القرون ثم حاولنا تحسس الواقع الاجتماعى المعاصر ، فىالقرن العشرين ، أو تلمسنا اشكال أنماط حضارة هذا الواقع ، لوجدنا أنفسنا فى (مستنقع) واحد !!؟

قضى « يوسف » ـ عليه السلام فى السجن بضع سنين ....وقد خلص نجيا من ميدان الفتنة واسبابها ودواعيها ، فتنة المراة وكيدها.....

ولكنه وقع فى فتنة جديدة ، فتنة الابتلاء بالحبس ، وكأنه ـ عليه السلام ـ فى جب جديد ، فى بئر مظلمة ...! ذات قاع بعيد عن الاحياء الأسوياء ....، وصخب الحياة وحركة الناس ....

غير أنه لم ينس نفسه وذاته ورسالته وهذا كله كان مهما عنده ، فظل مرتبطا بالله ربه ...، يستعيض عن ظلمه السجن بنور الحق والهداية ويكون لنفسه مجتمعا صغيرا من الذين يقاسمونه مكان إقامته، تم يحولهم بالدعوة والتبصرة الى مؤمنين

صالحين .

والذى ينظر بعين الفكر الثاقب الى مسيرة الخط البيانى الذى مضت وفقه حياة الصديق « يوسف » ـ عليه السلام ـ يراها تتحرك بقوة وبعد ....

فمن قعر البئر الذى ألقاه فيه إخوته بقصد الخلاص منه، يرتفع الىالقمة الى بيت العزيز ...﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ....﴾

ثم الى ظلمة السجن والنسيان وهو هبوط سحيق ملحوظ ، مادى ومعنوى ....، ومن ثم الى الذروة فى قفزة هائلة لها صفة الخارقة ....، الى مقام الوزارة !!! ؟

﴿ اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾ (١)

﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الارض يتبوا منها حيث يشاء ﴾(٢)

﴿ ورفع ابويه على العرش وخروا له سجدا)(٣)

---

(١)الآية٥٥ من سورة يوسف .

(٢) بعض الآية٥٦ من سورة يوسف .

(٣) بعض الآية ١٠٠ من سورة يوسف.

﴿ رب قد آتيتنى من الملك ﴾(١)

وبعد شهادة النسوة أمام الملك ببراءة « يوسف » ـ عليه السلام ـ وطهارته من الدنس ﴿ قالت امرأة العزيز : الان حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾

مضطرة ...مستغفرة .....

وقد شرحت وفصلت ظروفها ودافعها ، وأنابت فى توسل واعتراف الى بارئها قائلة :﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما ابرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوءالا مارحم ربى إن ربى غفور رحيم ﴾

---

(١) بعض الآية ١٠١ من سورة يوسف.

الفصل الثانى

الرجل والمراة :

الرجل والمرأة عنصرا الحياة واساس بقاء النوع الانسانى ، وعمارة الارض ،قد ركب الله تعالى فى كل منهما خصائص (فيزيولوچية) معينة ، ونفسيه ايضاً ،تتفق مع دور كل منهما فى الحياة ، ووظيفته فى البناء الاجتماعى والتركيب الاسرى .

ويعتبر أى تخلف فى أحدهما-سواء كان مقصودا أو عضويا عارضاً عن القيام بمهمات الوظيفة الإنسانية البشرية ، والبناء الحياتى-يعتبر خللا عضويا ، يؤدى حتما الى اضطراب وخلل ، ومن ثم الى انحراف عن الجادة ...

وهذا الانحراف لا يمكن أن يقع فى محيط الرجل والمراة ، فيزعزع كيانها ، طالما كانا ، أو أحدهما على الاقل ، موصولا بالله تعالى ، وثيق الايمان به ، يستهديه ويستبصره فى كل امر وشأن ، حتى فى الساعة العابرة .

وعلى هذا فالايمان عاصمة من قاصمة ، أو ريح صرصر عاتية ..

وأمر آخر جدير بالملاحظة والدرس ....والاستنتاج:

فمن خلال استقراء ما ركب فى كل من المراة والرجل ، من نزعات وميول ورغبات ، نرى أن الطاقة الجنسية فى الرجل ملحاحه فى لجاجة ، وأن الرغبة عنده دائمه التوقد والفورة ، وأما فى المراة فهى أقل ... وأحيانا أقل بكثير .

فهو الطالب وهى المطلوبة .

وهو الراغب وهى المرغوب فيها .

حتى إن الرجل يظل على امتداد سنين حياته قادراً جنسيا على القيام بأعباء المهمة ، ولو فى فتور أقل مما كان عليه فى إبان عنفوان رجولته ....

يظل قادرا على الاتيان ، وعلى الإخصاب:....

أما المراة فهى محكومة بسن معينة تدعى : (سن اليأس) ، قد تقل عن الخمسين عاماً ولكن لاتتعداها ....

ومن ثم ندخل فى مرحلة من العمر ينعدم فيها الإخصاب كما تتلاشى فيها الاستجابة الجنسية وتفتر ...، وتضعف كثيرا أيضاً .

و(الذكر) منذ سن المراهقة يعانى من تتأجج لواعج الجنس واضطرابه بين جنبيه ، وثوران الطاقة ، وقد يدفعه التنفيس عن الكبت المجنون الى ارتكاب حماقات ، أو تجاوزها الى الشطط !!

وقد يمارس نشاطات وهوايات تخفف من غلواء الشهوة ، أو يترقى فى المعالجة فيعكف على العبادة ودوام الصلة بالله تعالى .

ويرى علماء الجنس والنفس ، والباحثون فى هذا المضمار ، ممن جعلوا العلم التجريبي قرينة دراساتهم ، واستندوا الى مستخلصاته فى نظرياتهم ، أن (الانثى) اقل مراسا وتمرسا من (الذكر) فى أخطار سن المراهقة وما بعدها ، ومايصدر عنها من تصرفات .

على هذه المحاور تدور وقائع وأحداث قصة امراة العزيز مع زوجها ،ومع « يوسف » ـ عليه السلام ـ ، وما ترتب على الاحداث من مضاعفات، ثم من نتائج .

يوسف ـ عليه السلام ـ

(زليخا) ! ؟ والعزيز !؟؟

« يوسف » الحسن !!!

هكذا تعورف على اسمه ـ عليه السلام ـ فقد أعطى من الحسن شطره كما روى عن رسولنا الأكرم ،

أما التقسيم والتحديد بالثلث والنصف وغير ذلك فهو من ضروب التحديدات التى لا طائل تحتها ، والتى قد تدخلنا فى جدل تفسيرى وتاريخى ، أو بين تصديق رواية ورد أخرى مما لا

يفيدنا شيئا ، ويضيع معه الوقت ...إذ المهم الاصل الذى نبنى عليه البحث .

كما أننى لست أميل الىالتجريد فى هذا الصدد ...

أعنى أن الحسن الذى اعطيه « يوسف » ـ عليه السلام ـ لم يكن وقفا على جمال الصورة و بهاء المنظر ، وتناسق قسمات الوجه ....ولونه ....، وكذلك لون العينين وجاذبيتهما ....، وانسدال الشعر أو تموجه ...

فهذه كلها مقاييس أنثوية ، قد تغرى بعض النسوة بعض الوقت ....، ولكنها لاتستحوذ على قلوب الكثيرات ، اذ أن الفتنة التى تغرى المراة بالرجل هى (رجولته) ، بكل ما فى كلمة الرجولةمن معنى ...

(وعلى سبيل المثال فان غزارة الشعر فى صدر الرجل وعلى كتفيه مدعاة إعجاب من المراة !!!)

وما من شك فى أن « يوسف » ـ عليه السلام ـ كان الى جانب جمال الصورة يتمتع بقدر كبير ووافر من مظاهر الرجولة ومقاييسها .

أضف الى ذلك كله ، بل فوق ذلك كله نور النبوة الذى كان يتألق فوق جبينه وفى محياه ، بل يشع كالسحر فى عينيه .

وهذا عندى اشد فى جذب امراة العزيز اليـه ، تراوده عن نفسه ، وتغريه بالفاحشة . ولنا فى هذا شاهد ودليل .

لقد كان عبد الله بن عبـد المطلب » والـد سيـدنـا رسول اللهﷺ شـابـاً وسيما جميلا ، بـل يقـال بـأنـه كان من أجمـل وأوسم فتيان« قريش »فى « مكة » ...

وقد كانت تتعرض له إحدى بغايـا « مكـة » تراوده عن نفسـه ، بسبب مـاكان يـأتلق فى وجهـه وعلى جبينـه من اشراق ، مفتونة به ، معجبة بحسنه وبهـائـه ، فكان يعرض عنهـا ، ويـأنف منها ..

وبعـــد أن تـــزوج من « آمنـــة بنت وهب » التقى فى الطريق ذات يوم بتلك البغى فلم تعرض لـه ولم تتحرش بـه ، ولم تدعه اليها ....،فسألها ، فقالت : إن البهـاء الـذى كان فى وجهـك وإشراقة النور التى كانت تشع بين عينيك قد زالت .

ومن الطبيعى أن لا يعرف هـو سبب ذلـك ، ولا البغي أيضا !؟

أما نحن فنعرف حق المعرفة، وندرك تمـام الإدراك السر فى ذلك فقد افرغ « عبد الله » تلك الطاقة واستودعها رحم « آمنة » وانتقلت الى الاحشـــاء تتكـــون وتتخلـق ، لتظهر من ثم الى

الوجود بشراً سويا ، هو خاتم الانبياء والمرسلين ،(صلوات الله وسلامه عليه) .

كما أنه يجب أن لا يغيب عن ذهننا مقالة النسوة ، ضيفات امراة العزيز ، ﴿ **إن هذا الا ملك كريم** ﴾ !!

ملك فى جاذبيته ...

وملك فى اسره واستحواذه ....

وملك كطيف الشعاع ينفذ الى الصميم ، ويستقر فى الجوارح ، ويسرى فى الأوصال وهذا سر حسنه وجماع جماله .

استقر « يوسف » ـ عليه السلام ـ فى دار العزيز ـ تحت شعارين : (١) ﴿ **عسى أن ينفعنا** ﴾(٢)﴿ **أو نتخذه ولدا** ﴾

وهذا ما توسمه فيه العزيز ..، الذى كان رجلا ذا منصب رفيع، ونضوج ومكانه ، وكان الى جانب ذلك فى سن متقدمه ـ أو عجز جنسى ، أو يأس من الانجاب ؛ والله أعلم .

والنفع الذى عناه لا يقتصر على الخدمة داخل القصر الكبير ـ الفسيح الارجاء، ولكنه يتعداه الى الخارج فى حدود ما قد يُكَلِّفُه « يوسف » من خدمات تتصل بصميم مكانه فى القصر .

كما أن النفع لا يستلزم الآنية الحاضرة ، بل قد يتعلق بالمستقبلية ، حيث تكتمل فى « يوسف » الفتى عناصر القوة والخبرة

أما الشعار الاخر :﴿ **أو نتخذه ولدا** ﴾ فإن له مقتضيات واسباباً والارجح أن الصباحة والوداعة والبهاء كلهاجميعا . قد حركت فى نفس العزيز المحرومة من الولد حاجة ملحة كانت مجريات الحياة تطغى عليها ، فلا يعبأ بها ، ولا يحس لها صوتاً ، حتى ولاهمساً ..!

أو لعله كان يرضى بهذا القول نزعة الامومة عند زوجته ، وهو يدرك أن السبب فى الحرمان ناتج عنه ، وأن مردوده فى الاسى والحسرة ينعكس على الزوجة أكثر ما ينعكس عليه .

أما (زليخا)(١) .....امرأة العزيز .....،فقد كانت (أنثى) متفجرة ، الانوثة عطشى الى الجنس ، تعانى من قهر نفسى ، وكبت وحرمان ...، استبد بها شيطانها فتغلب عليها ، كما نازعها حياءها وخفرها وانتصر عليها ، واحتل حبات قلبها وكيتونة وجدانها فمالت معه حيث يقذف بها تياره .

١ـ الاسم : الذى عرفت به فى كتب التفسير

أصمت أذنيها عن سماع كلمة الحق ، واستغشت ثيابها عن نداء العقل ، وتنكرت لكل صيحة هدى قد توقظ ضميرها وتبصرها بعمق الهوة التى قد تتردى فيها .

ماذ كانت ترى فى « يوسف » ـ عليه السلام ـ ؟
هل كانت ترى فيه :﴿ **عسى أن ينفعنا** ﴾ ؟
وهل كانت ترى فيه : ﴿ **أو نتخذه ولدا** ﴾ ؟

هل ارتفعت من وهدة الشهوة والشبق ، وزالت عن ناظريها غشاوة الهوى الاحمق ؟

فنظرت الى الواقع الجديد فى بيتها وقصرها بمنظار العقل والاتزان ، وقدرت فى « يوسف » ـ عليه السلام ـ ما قدره زوجها ؟

لقد تنكرت لكل ذلك واضحت ـ من خلال آيات القرآن الكريم ، التى تتلى على مدى الدهور والعصور ، وتضج فى سمع الزمان صورة شاذه ومثلا يعكس الأدوار ، ويناقضّ النواميس ، وعنوان احتقار وازدراء وامتهان كما فى الغاية كذلك فى الوسيلة .

ما إن رأت « يوسف » ـ عليه السلام ـ حتى استيقظت فى نفسها الفتنة ، ولعلها كانت يقظة من قبل تروح وتغدو بين جوانحها متحيرة مترددة ، ثم استقرت على « يوسف » عند مرآه

وتعلقت به ، وشدت اليه فى تلهف والتهاب واضطرام ؛ وتأجج دائم وتوهج عارم !!!

تأرقت فى منامها ويقظتها !!!

تتمثل لها صورة « يوسف » فى كل لحظة ،وفى كل لفتة ....،وفى كل المرئيات والمشاهدات ؛ تلاحظه حتى لايغيب عن ناظريها ...

وهو ـ عليه السلام ـ مع شبوبه وتجاوزه مرحلة الفتوة والصبا يزداد بهاء ورجولة وإغراء ، وتزداد« زليخا » تعلقاً ورعونة .

وانتقلت من حيز التصميم الى حيز التنفيذ .....

فأخذت تطارد صيدها السمين بكل وسيله وسبب ، وتضيق الخناق ماأمكنها....

ولكنه كان فى (عصمة) من الوقوع فى مصيدة الشيطان ....،الى أن فاض بها الحال وضاق بها كل مجال ، ﴿ **فغلقت الابواب وقالت : هيت لك** ﴾ .....،

وهنا نتساءل : هل تتخلى عنه (العصمة) التى كانت رائده وتميته؟

أبداً....،

ففى لحظة الضعف البشرى الساخة ، العابرة....،أتاه (البرهان) .

﴿ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ﴾

رأى ببصيرته النبوية الواعيه سوء الفتنة والمنقلب يبدده نورالحق والهدى فآثر السلامة ، وانطلق موليا .

(ولنا مع « العصمة » و« البرهان » لقاء وحديث ـ ان شاء الله تعالى ـ)

لقد كان (الحسن) فى « يوسف » عليه السلام ـ فتنة وابتلاء. إنه امتحان شاق وعسير ، زاخر بالمادة ، مشحون بالصعوبة أداء ونتيجة امتحان فى ذاته ولغيره....،

صمد هو ـ عليه السلام ـ أمام تيار الفتنة الصاعق ، واجتاز الحواجز والعوائق وفاز ، وسقطت (زليخا) والنسوة فى مستنقع الشهوة وحمأه الجاهلية، فخسرن الجولة....، وانكفأ الشيطان ، وطاش سهمه .

وهكذا صراع الحق مع الباطل، امثولة ودرس لكل جيل ، ولكل عصر .

.....،ولابد أن نعلم ان فتنة (الحسن) فى « يوسف » ـ عليه السلام ـ ، حيث تتمثل فى ذاته وشخصه هى فى الامتحان والابتلاء اقسى وأشد عليه من « زليخا »....، لأنها تتصل بحياته وكيانه ، وتنعكس على عقله ونفسه ووجدانه ، وتتلازم معه تلازم أنفاسه .

العصمة والبرهان :

مهما اختلفت آراء المفسرين وتباينت اقوال المتأولين حول حقيقة (البرهان) وصورته ، الذى تبدى ل « يوسف » ـ عليه السلام ـ فحفظه وحماه، وصانه من نزغة (الهم) السانحة ، وشع فى بصيرته وبصره...، فأضاءهما بنور الله تعالى..

مهما اختلف فى ذلك ، فإن هذا البرهان يظل توأما (للعصمة)، ويظل صنوا لها ...

ذلك أن (العصمة) هى الحفظ الدائم المتلازم لحياة أنبياء الله تعالى ورسله ، تتجلى فى كل موقف وحدث ، وتبرز عند الضرورة و المقتضى ، تقيهم السيئات والفتن ، وتصونهم من الشرور والآثام ، وتطبعهم بطابع الاستقامة المسلكية مما قد يقع فيه من الشر عادة ، ليظلوا ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ القدوة الطيبة والاسوة الحسنة ، والعنوان الافضل والاسمى لما يجب أن يكون

عليه الاتباع فى مجريات الحياة ، يقلدونهم وينهجون نهجهم ، ويحاولون قدر الاستطاعة والإمكان أن لا يزيغوا عن الصراط المستقيم ، أو يحيدوا عن السبيل السوى .

والله سبحانه وتعالى هو الذى يختار ويشاء ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾؛ فيصنع الرسول أو النبى على عينه ويخلق له التكوين النفسى والخلقى بأطر مختارة متميزة ويصرفه بالوحى والالهام ...

وبهذا تتحدد السمات والفروق .....،بالاضافة الى معطيات أخرى ، منها المعجزة) وغيرها . وكما أن (العصمة) عطاء الهى ومكرمه ، فانها التزام سلوكى ياخذ به النبى أو الرسول نفسه فى مواجهة الشيطان ، يقارعه وينتصر عليه ، ويهزمه .....، ويحقق المثل المطلوب فى النزاع الابدى بين الخير والشر ، وإبراز زهو الفضيلة وانكفاء كل رذيله ، وليتخذ المؤمنون والاتباع سبيلهم على هدى وبصيرة .

(وهذه العصمة) تتجلى بحق فى أنبياء الله ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ فى القران الكريم نماذج حية ، تترى قصصاً ، منها المفصل ومنها الموجز ، عبرا سامية ، تشذب كل

افتراء أو ظن وتقصيه عن ذواتهم وحياتهم ، وتؤصل فى النفوس قواعد الايمان والخير والحق .

لو تناولت حياة اى منهم ، وتتبعتها خطوة خطوة ، وحركة حركة ، وموقفا موقفا ، مع ذاته ومحيطه ومع قومه وأمته ...، تبدت لك (العصمة) عنوانا حيا لا ينفك ولا يتخلف ....

وعجبا لأمر (التوراة) ـ العهد القديم ـ تسفل بهم فى سلوكهم حتى تحت الخط الأدنى فى النوازع البشرية و الفطرية ، وتنحط بغرائزهم الى الدرجة الحيوانية البهيمية ، وتصورهم صورا لايمكن من خلالها أن تقتنع نفسياً ووجدانيا بـ(نبوة) أحدهم ، النبوة القدوة ، والنبوة الهادية ، والنبوة الداعية!!!

لقد جردتهم (التوراة) ـ العهد القديم ـ من مثالية (العصمة) ، ففقدوا من جراء ذلك (الأنموذجية) وإنى لأتساءل: كيف يتسنى لنا ونحن نعايش هبوطهم هذا أن نتبعهم ، أو نتّبعهم !؟ فضلا عن أشياعهم السابقين واللاحقين .

معاذ الله .....

إن هذا لإفك وضلال وانحراف !؟

كما أنك لاتستطيع أن تستثنى واحداً من الانبياء والرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ على ماجاءت به أكاذيب (التوارة)ـ العهد القديم ـ فىحقهم ؛ وألصقته بأشخاصهم ، وأدلك على مثل واحد فقط ، وهذا يكفى ؛ لترى (أنموذجية) ـ النبوة !!!

اقرا إن شئت (نشيد الأنشاد) المنسوب افتراء « سليمان » (عليه السلام)، ولاتعقب !!

(العصمة) للنبوة ، والنموذج الحى ، والقدوة المثلى ، معادلة اساسية وأصلية ، مع تماسك وتناسق وضرورة ، إن اختل ـ أو تخلى ـ أحد عناصرها فقدت مقوماتها وأحقية وجودها .

وإننا لنلاحظها فى جلاء ووضوح فى قصة سيدنا « يوسف »ـ عليه السلام ـ ، وعلى الرغم من أن حديثنا وموضوعنا حادثة (زليخا) مع « يوسف » فان هذه (العصمة) رافقته مبكراً ..، منذ رؤياه الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا يسجدون له ...

﴿ قال يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوتك

فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ ...،فعصمه الله تعالى من كيد القتل!! والغدر ايضا !! ومنذ أن أُلقِى ﴿ فى غيابة الجب ﴾ وقاسى من وحشة الظلمة ، والضوارى والزواحف فعصمه الله تعالى واستنقذه على أيدى السيارة ....

ومنذ أن بيع رقيقاً بثمن بخس ، ينادى به ....ويدلل عليه كالعبيد ، فعصمه الله ـ سبحانه ـ بالمثوى الكريم فى بيت العزيز .

كما عصمه ايضا بالظن الحسن وثاقب الرؤية ، حين قال العزيز :﴿ عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا ﴾

فأى مقام اسمى واعظم فى اطار البيوت من مقام الابوه والبنوة ؟!!

وظلت هذه (العصمة)مرافقة له حتى ﴿ رفع ابويه على العرش ﴾ واستنزل أهله اجمعين فى مصر منازل المكرمين .

ولقد سبق ذلك مواقف كثيرة كانت (العصمة) فيها الحارس الأمين الذى لا يتخلف فهو فى عين الله تعالى التى لاتغفل ولاتنام .

وكان اقسى المواقف واشدها هولا واعظمها ابتلاء فتنة (زليخا)....

لقد مر « يوسف » ـ عليه السلام ـ بأدوار ومراحل ، قبل ان ﴿ همت به وهم بها ﴾ وبعدها ايضاً ..، وكلها ابتلاء، تختلف صورا وأشكالاً ، وتمس من ذاته ـ عليه السلام ـ نزعات ورغبات قصية عن شهوة الجنس القاتلة المدمرة والتى هى مفرق السمو الانسانى أو الهبوط .

وحين بلغت الفتنة مداها وذروتها ﴿ همت به وهم بها ﴾ تجلى (البرهان) عنوان (العصمه) ، واضاءت فى جنبات نفسه (عليه السلام)اشراقات النبوة ، ﴿ فاستبقا الباب ﴾

ولحظة (الهم) من « يوسف » ـ عليه السلام ـ لاتأخذ مساحة زمنية أكثر من مدى قراءة الكلمة ، حرصا من القرآن الكريم على حقيقة النبوة فى شخص « يوسف » وسموها وأيضا .... ادب الرواية والحديث والالتزام الاخلاقى فى السرد والتأثير على السامع والقارئ.....معاً .

ونحب أن نلاحظ ما يفترى به بعض الكتاب القصصيين والروائيين على (الادب) تحت شعار (الواقعية) ، اذ يعنون فى

الوصف والتصوير ، والاسهاب والإطالة ، مدغدغين للعواطف والغرائز !!!

فالبرهان الذى رامه « يوسف » ـ عليه السلام ـ من مستلزمات (العصمة) وضروراتها، وكما أن (العصمة) رعاية وعناية وحفظ من العثرات فى الظلمات ، كذلك (البرهان) كشاف نوارنى ربانى يعشى عيون الشيطان ويخسئه عن عباد الله المخلصين .

الفصل الثالث

الرؤيا بداية ونهاية :

لعلنا لانعدو أو نتجاوز اطار البحث وموضوعيته حين نتحدث عن الرؤيا فى حياة سيدنا «يوسف» ـ عليه السلام ـ كمرتكز اساسى وقاعدة اصلية أو محور تدور به ومن حوله الاحداث ، وتتعاقب الوقائع والمجريات .

فضلا عن أن وجوده فى بيت العزيز وتعرضه للفتنه والابتلاء ، على اقسى واشد مايكون التعرض للفتنة والابتلاء ، هو فى واقع الامر فصل من قصة (الرؤيا) وجزء من متمات المحنة.

إن (الرؤيا) فى حياته ـ عليه السلام ـ تلفها من البداية الى النهاية ...

﴿ اذ قال يوسف لابيه يا أبت ،إنى رايت احد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تاويل الاحاديث ويتم نعمته عليك وعلى ال يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل ابراهيم واسحق إن

ربك عليم حكيم ﴾ .

تلكم كانت البداية.... ثم تسلسلت الفصول .

ففى براءة الطفولة ونقائها، وصفاء القلب والوجدان، وطهارة الذات من أوشاب مغريات الحياة ..... وتحمل الإرث النبوى فى ذرية إبراهيم ـ عليه السلام ـ شرفا ومسئولية ،

فى كل هذا ، ومن معطيات أجوائه ومقاييسه تجلت ل« يوسف » ـ عليه السلام ـ الرؤيا وأى رؤيا!!؟

راى الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ينزلون من سمائهم دنوا من« يوسف » واقترابا ، وكأنهم فى حالة سجود، وخضوع وانقياد ...

وهذه منزله تكريم ، ومقام تشريف وإيعاءة علو مكانة ....

(رؤيا) لها فى النفس رهبه وقشعريرة ، واستفراز للمشاعر والأحاسيس ....، ومابالك اذ كان الرائى طفلا !؟ والطفل هو « يوسف الصديق » بن « يعقوب » بن « اسحاق » بن « إبراهيم » ـ عليه السلام ـ !؟

ويتجلى الادب القرانى العظيم فى إشاراته اللطيفة ، كيف لا ... وهو الكتاب الربانى الذى لا تنقضى عجائبه !!!

يتجلى فى تقديم الكواكب الاحد عشر ، رمز الاخوة ، على الشمس والقمر ، رمز الابوين فى الذكر ...، فى الدنو الذى يقارب السجود ، وفى تصنيف ترتيبى يحفظ المقام والمنزلة .

راى « يوسف » ـ عليه السلام ـ الرؤيا ...، فاستيقظ لها بكل جوارحه وعقله وحسه وحدث بها أحب الاحباء اليه ، ومستودع حنانه وعطفه ، حدث بها « يعقوب » أباه ....

وأدرك الاب (النَّبى) مغزاها ومرماها، وفقه مدلولاتها واشاراتها وتصور من غير تعليل أو تفصيل فضلا سيؤتيه الله تعالى ل « يوسف » ... وخاف على حبيبه من نزغة الشيطان ، فأوصاه أن يكتم ذلك فى صدره ويحفظه سرا بينه وبين نفسه ، ولايحدث بذلك إخوته ...

إخوته الذين مافتئوا يرددون : ﴿ **ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين** ﴾ .

ولقد كانوا يتناجون فى هذا فيما بينهم ، ثم يواجهون به أباهم ، مستنكرين غاضبين ، يغلى فى نفوسهم مرجل الحقد ، ويتقد أتون الحسد والشر .

وازداد حب « يعقوب » ل « يوسف » ـ عليهما

السلام ـ وكذلك حدبه عليه و خوفه ....، وأحاطه عن ذى قبل بأسباب الرعاية ...

ويبدو فى سياق السرد القرآنى أن « يعقوب » ـ عليه السلام ـ كان واضح التصرف ، صريح الحركة والفعل ، فى عزل « يوسف » عن الاختلاط بإخوته منفردين ، لذا قالوا :﴿ **يا أبانا مالك لاتأمنا على يوسف ....﴾؟؟**

وإزاء هذه التزايد من جانب « يعقوب » كان هناك تزايد اخر من جانب الاخوة ،تزايد فى الحقد والحسد ....

وانتقل الشيطان من دور الى دور فى اثارتهم وإهاجتهم ، فبعد أن وسوس لهم ، ونفث فى روعهم ما نفث ، زين لهم الجريمة .... نطق بلسان حالهم ...﴿ **اقتلوا يوسف ....أو اطرحوه ارضاً يخل لكم وجه ابيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾**

وانتقلوا مع (إبليس) أدوات مسخرة ، من دور الانفعال والتصميم الى دور التنفيذ ...

وهنا تتدخل الارادة الالهية من علٍ لتخفف من وطأة صورة الجريمة ، على لسان أحدهم ، فبدلا من القتل يكون الالقاء

﴿ قال قائل منهم : لا تقتلوا يوسف ، وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾

وبعد جدل بينهم وبين ابيهم وبعد حوار فيه كثير من الموحيات المستقبلية ، التى يفيض بها قلب « يعقوب » على لسانه يوافق على أن يصطحب الاخوة « يوسف » معهم فى نزهه بريه ....

النزهة التى كانت بداية تحقيق (الرؤيا) التى رآها « يوسف » ـ عليه السلام ـ ، بكل محطاتها واستراحاتها ، بكل شقائها وابتلائها ....،بكل هبوطها وارتفاعها بكل تأجج فتنها وخمودها ....

وما كان كل ذلك الا ليزيد « يوسف » ـ عليه السلام ـ نقاء إيمان وصفاء عقيدة ، وثبوتا ورسوخا وتعلقاً بالله تعالى .

ويخرج « يوسف » ـ عليه السلام ـ من السجن .... ، بفضل من الله تعالى الذى علمه تأويل (الرؤيا)و(لنا الى هذا عودة إن شاء الله تعالى) .

لقد خرج من قبل من الجب وعليه مسحة رمد لم تدم طويلا ليدخل بيت العزيز وليفتن الفتنة الكبرى ، وليصقل أكثر

و أكثر ....

لكن خروجه هذه المرة من السجن يختلف صورة ومعنى وغرضا اذ اكتملت فى ذاته اشراقه المنحة الالهية بالنبوة وقاربت مسيرة (الرؤيا) من التحقق والتأكد .....

لقد خرج من السجن وظلمته ووحشته الى مقام الوزارة ، والحكم المسئول....الى رفعة المكانة ورفاهية العيش ....، الى الأضواء والأمان.....، الى امتحان آخر فى الضبط والعدل ، فلا اغترار ولا زيغ .

ومرت ظروف وأحداث وفق تدبير علوى ربانى ....

فجاء إخوة « يوسف » الى مصر ليتاروا بعد أن عم القحط والجدب ديارهم ، واحتاجوا الى الطعام .....

فعرفهم ولم يعرفوه ....، وهذا منطق الزمن وحكم السنين والبعد .... أيضا .

وكما (كادوا) له من قبل وألقوه فى غيابة الجب وعرضوه لمختلف صنوف الاذى والفتن ، (كاد) لهم ، ولكن (كيد) خير ومحبه ، كيد عطف ورأفة .

لقد كان كيدهم نزغة شيطان ...أما كيده ـ عليه السلام ـ

فكان من وحى الرحمن والهام العظيم المنان .

وإنى ـ عزيزى القارئ ـ لألحظ أمرا ، هو التوازن والتعادل فى الوقائع و الصور ، فى قصة « يوسف » ـ عليه السلام ـ

جب وسجن ....
كيد وكيد .....
رؤيا ورؤيا .....

فسبحان المدبر وسبحان المهين ، و.... وسبحان الله .

حقا وصدقا : ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبره لأولى الألباب** ﴾

لقد كاد لهم وأحكم التدبير ....، فحركهم بأجسادهم ذهابا وإيابا ، وأرهقهم غدواً ورواحا ...، ثم هز نفوسهم ووجد اناتهم هزاً عنيفا ، كى تستفيق الضائر الغافلة ، وتخلص من اسر الشيطان، وتصفو من دخنه ووشبه ، حتى تم ذلك .

وجاءوا باهلهم أجمعين .....

وخروا ساجدين .....

وعند كلمة السجود نقف قليلا، وننحو مع القائلين بان السجود هنا ليس على حقيقته الصورية، اذ لايكون السجود الا لله تعالى وحده .....

ولكن ماقولكم فى الانحناء ايضا ، الذى اخترتموه وتعارفتم عليه ضمن إطار هذه الواقعة ؟

فى رأينا ـ والله اعلم ـ أن المعنى أكبر بكثير من الصورة المادية ، سواء بالسجود أو الانحناء ، أو خفض الراس حتى ..

لقد تمت صورة الاعتراف بالنبوة وما يتفرع عنها ، والايمان بالله تعالى ، ومقتضيات هذا الايمان على كيفية هى ارقى وأسمى الصور والحركات ، وذلك بعد أن تطهرت نفوس الإخوة من درن الشيطان ، وخلصت نقية الى الرحمن فسجدت إذعانا وإيمانا ، وسجد « يعقوب » وأهله شكرا لله على فضله بلقاء « يوسف » حيا ، بعد أن أمضه الفراق وأوجعه الحزن وأعماه البكاء

يقول رسولنا الاكرم ﷺ :(أقرب ما يكون العبد الى الله وهو ساجد) !؟
والسجود هُوىٌّ ، ونزول ، وهبوط بالجبهة ،رمز العنفوان ، الى الارض ...؟
هذه الصورة مادية ...،أما الحقيقة المعنوية فهى ارتفاع وعلو

وقرب !!!

وبهذا كان إخوة « يوسف » وأبوه ، والأهل جميعا ، أقرب مايكونون الى الله تعالى فى تلك اللحظة !

ولم يكن سجودهم الا لله ، وإن كان بين يدى« يوسف » وفى حضرته !!!

وهنا تتصل النهاية بالبداية ، وتتجلى حقيقة (الرؤيا) ، ويقول « يوسف » ـ عليه السلام ـ

﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاءبكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى . إن ربى لطيف لما يشاء . إنه هو العليم الحكيم ﴾

(من الاية ١٠٠ من سورة يوسف) .

الرؤيا بين المحنة والمنحة :

....وولج « يوسف » ـ عليه السلام ـ من باب (الرؤيا) الى ميدان المحنة ، ومن نافلة القول تكرار الحديث عن الوقائع والصور والاشكال ، أو المسارب والمداخل لكنها جميعا توجت بانتصار

الحق ، وغلبة الخير ، وتألق الفضيلة .

فحيث كانت رؤياه ـ عليه السلام ـ فى طفولته بداية الصراع ، ومنطلق المعركة، ومدخلا الى جحيم الفتنة والابتلاء (محنة) وامتحانا ....، كانت (الرؤيا) كذلك من بعد ـ مخرجا وفرجا ،و (منحة) ...

فمن حيث انتهت به تقلبات الشدة فى البلوى الى ظلمات السجن ، والحبس والقيد ، فى عملية عشوائيه ، وافتئات على العدل والحق ، بعد أن اتضحت براءته وطهارته .....

تبدت (الرؤيا) فى حياته ـ عليه السلام ـ من جديد سبيلا الى الخلاص ، ودحض الظلم والافتراء ...

ولئن كان الامر يتعلق به وحده فى الظاهر ، أو تدور وقائعه فى إطار الاشخاص الذين تمسهم القضية مسا مباشرا : (العزيز) و(زليخا) و (يوسف) و (النسوة) ؛ الا أنه

من حيث النتائج يطال المجتمع بكل طبقاته وفاعلياته ، ومستوياته ، ثم يقوم انحراف السلطتين : القضائية والتنفيذية ، اللتين انجرفتا فى تيار الهوى والمصلحة وتنكرتا لقاعدتى : الحق والعدل .

لم يفرح « يوسف » ـ عليه السلام باستدعاء الملك له من السجن ، ولم يستخفه الطلب ، ولم ينزلق فى مهوى الحرية الزائفة ، لكنه ـ آثر المبدأ على الذات وكان همه الأوحد أن يسطع نور الحق ....، وتنضبط سلطة (الملك) و(العزيز) فى التحقيق والتنفيذ بهذا الحق ومصدره ...

ثم رد رسول الملك ليسأله :﴿ **ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن** ﴾ !!!؟

ونعود الى (الرؤيا) المنحة ....

فقد كان ـ عليه السلام ـ فى السجن (مثالا) يحتذى ، و(نموذجا) يقتدى قولا وعملا ....،فأضحى موضع (ثقة) وموئل (استماع واتعاظ) .....،فكوكب حوله رفاق الزنزانة يبشيرونه ويستفتونه ....

وكانت (رؤيا) اثنين من السجناء ، ثم (رؤيا) الملك بعد أمة من السنين (منحة) الانتصار فى معركة التحدى والاختيار ....

وخرج « يوسف » ـ عليه السلام ـ من السجن !!!

والسجن عزيزى القارئ رمز وإشارة ، أكثر من أن يكون واقعاً مادياً ، فى جدران غليظة ....، وقضبان حديديه ،

وسلاسل وقيود ووحشه وعذاب !

إنه إشارة الى السجن الكبير الذى لف حياة الصديق « يوسف » ـ عليه السلام ـ منذ (رؤيا) المحنة .....الى الجب ....الى الرق .....الى مراودة امراة العزيز ....الى غمط الحق ونحر العدل ....

فكل أولئك ـ عند التحقيق ـ عوامل اسر وحسر ، ووسائل ضغط وإكراه وقيود تكبل وتثقل وتسلب حرية الارادة والقرار .....

وهى و السجن على حد سواء !

ثم إن انتصاره ـ عليه السلام ـ فى معركته الكبرى أخذ أبعادا كثيرة ، ومتعددة ...، انعكست بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، على كل الأشخاص الرئيسيين والثانويين الذين داروا فى فلك القصة ....

خصوصاً أولئك الذين كانوا أدوات المحنة ووسائلها ، فإذا (المنحة) تعمهم جميعا ندماً وتوبة ورجوعاً الى الحق ؟ إخوته وامرأة العزيز .....،والنسوة .

وأيضا الملك رأس الحكم والسلطان ، ورمز القيامة على

القانون والنظام ، فإذا أذعن للعدل والحق ، وشد فى ذلك ، سلم شعبه من أذى الطغيان ، وسعد الناس بالامن والأمان .

الملك الذى قال : ﴿ **ائتونى به استخلصه لنفسى** ﴾

وبهذا كانت(الرؤيا) منحة !! أيضا للملك ولـ « يوسف » ـ عليه السلام ـ

معجزة تأويل الأحاديث :

قال لى أخ كريم كنت أجاذبه الحديث حول الموضوع والعنوان ، كما كنا نخوض فى أعماق البحث بصورة عامة ، قال لى :(**ولماذا تأويل الأحاديث وليس تعبير الرؤيا ؟**) :وكان معه بعض الحق من زاوية التبسيط الموضوعى .

فقلت : إن عبارة ﴿ **تأويل الأحاديث** ﴾قد وردت فى القرآن الكريم على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ حين قال :

﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** ﴾

فالالتزام بالنص القرآنى أولى ...، كما أن العبارة توحى بمضمون الإشارة الى غير تعبير الرؤيا أيضا ...، فالتدبير الذى اتخذه ـ عليه السلام ـ بحق إخوته ، والايقاع بهم ، ثم كشفهم ...، وردهم الى الصواب ، إن هو إلا (**وحى**) ربانى ، وتنظيم علوى ، أوتيه « يوسف » ـ عليه السلام ـ ، ومن هذا القبيل قوله : ﴿ **اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى ...** ﴾ والذى سيحدث ﴿ **يأت بصيرا** ﴾ !! ـ والله أعلم ـ .

ونعود الى سياق البحث .

فالمعجزة للنبى ، أى نبى ... ـ عليهم الصلاة والسلام ـ شهادة ودليل ، وقوة مؤيدة ترافقه عند الموقف والضرورة .

وهى تختلف من حيث الشكل والصورة بين نبى وآخر ، تبعا للمقتضيات والظروف والحاجات ، ولقد قال فى هذا علماؤنا وشيوخنا أقوالا كثيرة ، وأفاضوا فيوضات واسعة ...

ونريد أن نعرض لأمر ، قد لا يكون فى صلب البحث ، غير أنه من باب الخواطر التى تطرأ على الفكر وتكون للصورة ألوانا وظلالا تزيد فى إشراقها وبيانها ، هذا الأمر هو مدى أحقية الفروق بين جميع المعجزات السابقة ومعجزة الرسالة الخاتمة ، فكل (المعجزات السابقة) قد انقضت وانتهت كواقع مادى ،

وتولت ...، ودلك بمجرد انتهاء تواجد النبي ـ صاحبها ـ بين قومه وأمته ، ولم يبق منها الا الذكرى، والعبرة .

أما الرسالة الخاتمة ، ومعجزة صاحبها ـ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ القرآن الكريم ـ فهى باقية خالدة دائمة .

وأحب أن أضيف أن من يتصور بأن القرآن الكريم من حيث كونه معجزة « محمد » « ﷺ » وقف على البلاغة والفصاحة والبيان انما يبرز جانبا واحدا منها فقط ، ويقصر عن ادراك كثير من الجوانب التى لا يزال بعضها يتجلى ويتضح مع الأيام ...، والتى لايزال بعضها فى طيات الضمير الكونى ...

وإن فى وصف النبى « ﷺ » للقرآن الكريم بأنه الذى : **(لا تنقضى عجائبه)** إيماءة وإشارة ، وحافزا للقلوب والعقول ، كى تنفعل وتتفاعل ، وتترقى فى سلم الايمان والادراك .

لقد أوتى « يوسف » ـ عليه السلام ـ معجزة تأويل الأحاديث ، وتعبير (الرؤيا) ، شهادةلكرمة النبوة ، ومفتاحا لكل باب يمكن أن يوصده الشيطان فى وجهه-وسواء على الصعيد الشخصى أم الصعيد العام ـ.، أم سفينة نجاة يمخر بها عباب الفتن وخضم البلاء ، ثم يبلغ شاطئ الأمان وميناء السلامة .

ولقد تكررت (الرؤيا) فى حياته ـ عليه السلام ـ على ثلاث صور وأشكال ، وهى من حيث الواقع حلقات فى سلسلة واحدة .

الأولى : رؤياه ـ عليه السلام ـ فى طفولته ، حين راى الشمس والقمر ، والكواكب الأحد عشر ، يسجدون له .

وهى فى رأينا ـ والله أعلم ـ ابتداء الاختيار للنبوة ، والاصطفاء !!

والثانية : (رؤيا) صاحبى السجن اللذين رأى أحدهما أنه يحمل خبزا تأكل الطير منه ، وثانيهما أنه يسقى مليكه خمرا ؛

وأولها لهما « يوسف » ـ عليه السلام ـ ، بما آتاه الله تعالى من معجزة تعبير الرؤيا ، وحكم على الأول بالاعدام ، عقابا ...، وعاد الثانى الى الخدمة فى قصر الملك ...، ولقد وصى « يوسف » ـ عليه السلام ـ الناجى منهما أن يذكره عند الملك ، ولكنه نسى وطال به النسيان فترة من السنين ، حتى ادكر وكان سبب تذكره !

الرؤيا الثالثة : التى رآها الملك : ﴿ **سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات** ﴾

فاستفتى الناس فى هذا ...، من كهان وعلماء ووزراء ، وكبار أعوان وخاصة ...، فلم يستطع أحد أن يحل الرموز ، أو يقول فى الرؤيا قولا مقنعا ، ونفضوا ايديهم قائلين : ﴿ **أضغاث أحلام**

وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ (١)

عندئذ تذكر الناجى « يوسف » ـ عليه السلام ـ وذكر به الملك ...

ولأول مرة فى السورة الكريمة يأتى ذكر « يوسف » ـ عليه السلام ـ مقرونا بصفة (الصديق) : ﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات .... ﴾ الاية(٢)** ، وفى هذا إشارة لطيفة ...

لقد تحققت مخايل الصدق ودلائله فى شخصية « يوسف » عند صاحب السجن ، وانطبق واقع الحال على المقال ، وتأكدت لديه مناقبية السلوك ، صدق الفراسة وعلم التأويل ...، فكان النعت ضرورة بيانية ومنطقية .

وأيضا ....

فان (التهمة) و (السجن) ماتزالان كالظل الأسود أو الضباب الذى يحجب الرؤيا ، ويموه حقيقة الواقع ، ويقلب مقاييس العدل رأسا على عقب ، فالمتهم الحقيقى خارج السجن يسرح ويمرح ، والبرىء يضطهد ويعذب ...

فكلمة (الصديق) هنا نوع من الصدمة الكهربية التى

---

(١) الآية ٤٤ من سورة يوسف (٢) الآية ٤٦ من سورة يوسف

تستعمل فى العلاج النفسى ، لتهز الأحاسيس والمشاعر هزا عنيفا ، لتستقيم بعد التواء ، وتستوى على المحجة بعد انحراف ، وبهذا (يعتدل) الانسان ، فى ذاته ومحيطه ...

لم يقصد بها « يوسف » ـ عليه السلام ـ ، معاذ الله ...، ولكن قصد بها الواقع الجاهلى الذى أورده مورد : تهمة الفاحشة ، وعذاب السجن .

وليس أبلغ فى ربط المعانى وتسلسل الأمور لتكتمل صورة (الصديق) من صدق معجزة التأويل ، وظهور البراءة والطهارة ، وسطوع الحق ، ثم بلوغ المكانة الرفيعة باستخلاص الملك لـ « يوسف » عليه السلام ـ وتبوئه مرتبة الوزارة ...

لقد أول (عليه السلام) بما أوحاه الله اليه رؤيا صاحبى السجن ، ثم رؤيا الملك ، فكانت حقيقة الواقع المستقبلى ـ الغيبى ـ كما قال ...

ولكن ظلت رؤياه هو فى ضمير الغيب !؟

إنها ـ ولاشك ـ رؤيا النبوة ، تكريما وتعظيما ، تسير حياة (الصديق) وفق ترتيباتها العلوية ، لا تتخلف عن صراطها قيد

أغلة ، وتصهر من خلالها صهرا شديدا ، كى تتألق من بعد نموذجا للمخلصين نقيا تقيا طاهرا لا شائبة فيه ولا عيب .

فمن يحققها ويؤولها ؟ يحققها الذى أوحى بها - سبحانه - !!! ويؤلها بذاته - جل جلاله - .

وانظر معى عزيزى القارئ - إلى قول « يوسف » - عليه السلام ، وما حواه فى أدب النبوة ، حين يقول لأبيه وأهله ، بعد أن سجدوا : ﴿ **هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ... ربى ... حقا** ﴾

وإن فى ذلك لعبرة .

الفصل الرابع

الدعوى :

تعارف العامة من الناس على مثل شعبي تنطبق عليه حالة « يوسف » ـ عليه السلام ـ مع (زليخا) امرأة العزيز ،

يقول المثل : (ضربني وبكى ، وسبقني واشتكى)، بمعنى أن المتهم(بفتح الهاء)، المعتدى ، يصبح متهما(بكسر الهاء)ومعتدى عليه ، وبهذا تنقلب مقاييس العدل ويختل ميزانه

والذى جعلوا الميزان شعار العدل عنوا بكفتيه : الحق والواجب، فاذا استقامنا بالتساوى من غير ميل أورجحان ، تحقق المعنى والغرض ، وتأكد العدل ، ولهذا يقال :اعتدل الميزان .

والدعوى ـ اى دعوى ـ لابد لاثباتها وبلوغها مقصدها من توفر الاسباب التى منها : الحق فى جانب المدعى، والواجب المترتب فىجانب المدعى عليه ، جزاء أو عقابا وأيضا ...لابد من البينة التى تعتبر قرينه مؤيدة فى وجه الخصم ..، وكذلك التحقيق والاستماع الى الشهود ....،الى اخر ما هنالك من أدلة نفى أو

إثبات .

ولقد وضع نبينا« ﷺ » قاعدة فى التحاكم ، تعتبر اساساً فى التشريع ، يعتمد عليها ويركن اليها ، وهى قوله الشريف: (البينة على من ادعى واليمين على من أنكر) ، كما انها فى ايجازها تظهر عظمة البلاغة المحمدية ، ألم يقل (عليه الصلاة والسلام) : (أوتيت جوامع الكلم) !!!؟

ونمر مع « يوسف » ـ عليه السلام ـ و (زليخا) فى مراحل قضية ، بكل تفريعاتها وجوانبها ،وأشكالها وصورها ....

من الادعاء ...الى التحقيق..الى الشهود ..،الى نفوذ صاحب السلطة واختلال ميزان العدل.....، الى الظلم وغمط الحق الى حين ....، الى إعادة التحقيق ....الى الاعتراف وظهور البراءاة .

ونسير مرحلةً مرحلة ...

لقد ﴿ استبقا الباب ﴾ «يوسف» و(زليخا) ...، هو فى هروب وهى فى لحوق ، هو فى تول ونفور وهى فى إمساك وجذب ، فقد قميصه من دبر وتمزق ..!

﴿وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ ....،فابتدرت هى الكلام ...،

لان هذا المشهد لابد له من تحليل ، وهى المضطره اليه ، المكرهة عليه ، تشفيا وانتقاما ، وثأرا لكرامتها الأنثوية المهدورة ، فاتهمت وادعت ، زورا وبهتانا ...وقالت :﴿ **ماجزاء من أراد بأهلك سوءاً ..**﴾ولم تكتف بالادعاء وحده وإلقاء تهمة الايذاء فى وجه « يوسف » ـ عليه السلام ـ وعكس الواقع ، بل جعلت كفتها فى ميزان العدل تهبط وتكاد تنقطع وتقع إذ أضافت:﴿ **إلا أن يسجن أو عذاب أليم** ﴾موحية لزوجها بالحكم ، متجاوزة بهذا كل التحقيق والشهود ...و لم يذكر القرآن الكريم فى معرض الحادثة سوى قول يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ **هى راودتنى عن نفسى** ﴾ .

ولكن ... هل يمكن لأى مدع أن تصدق دعواه ، هكذا اعتباطاً ، من غير تحقيق أو شهود أو من غير تمحيص ؟!

ان القرآن الكريم ومن خلال هذه الحادثة ـ أو غيرها أيضاً يقعد ـ كثيرا من الاسس فى التعامل الإنسانى ، ويحدد الحدود والأصول ، درءاً للطغيان ، وصونا لكرامة الانسان .

التحقيق والشهود :

﴿ **وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل**

فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾

إن تحاور هذا الكلام وتجاذبه يوحى بالبحث عن البينة والدليل لإثبات الادعاء أو نفيه كما يوحى بالتحقيق فى الواقعة وهو أسلوب يتبع فى مرحلة أولية من مراحل الخصومة ، ويسمى الذى يناط به الامر ، أو يضطلع بهذه المهمة :« محققا » أو : « وكيل نيابة » أو : « مستنطقا » ، واختلاف التسمية بين بلد وبلد ، أو بين نظام ونظام لايؤثر فى حقيقة الوظيفة المسندة ، أو فى قيمة النتيجة .

وشخصية المحقق فى الواقعة التى نحن بصددها شخصية مزدوجة ذات صفتين فاعلتين فى الموضوع : شخصية المحقق ، وشخصية الشاهد .

...فحيث لم يكلف بالتحقيق وإبداء الرأى بصفة رسمية وقانونية ، (شهد) ....

وأراك عزيزى القارئ ـ تنظر معى بإمعان وإعجاب كبيرين الى العظمة القرآنية البلاغية والبيانية حين سماه بـ (الشاهد) فقط !!و كأنه يوحى بتضمينه الصفة الاخرى من خلال الدليل المنطقى !

كما يجب أن لا ننسى صفة القرابة التى أضفيت عليه وأنه ﴿ من أهلها ﴾ !!لأن القرابة عادة تميل الى القرابة ، وذلك هو الهوى....، لكن الحق أحق أن يتبع ، حتى ولو كان المخاصم ذا قربى :﴿ **لا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ،اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾

ولا أحب أن اغادر موقفى هذا من مسيرة البحث قبل أن أضيف كلمة تتعلق بما لجأ اليه بعض المفسرين ـ رحمهم الله ـ من تحلات واستنباطات حول حقيقة شخصية الشاهد ،مع توفر حسن النية لديهم ..، إذ قال بعضم : بأن الشاهد كان طفلا رضيعا فى المهد أنطقه الله تعالى بالحقيقة والقياس المنطقى الدامغ ، زيادة فى اضفاء صفة التكريم والتبجيل على شخصية النبى « يوسف » ـ عليه السلام ـ ، وقد استندوا فى قولهم هذا إلى حديث نبوى شريف ....

ولست أنكر هذا ، إطلاقا ..، لكن أحب أن أشير الى قوله تعالى﴿ **وشهد شاهد من أهلها**﴾

فالشهادة هى(الرؤية)، ليس فى هذا أدنى شك !!!

(شاهدنا)كان مع سيدها لدى الباب لأنه(رأى) آثار

المعركة ،فى وجه وألبسة« يوسف »و«زليخا» ...،وحيث لم ير فى قبل قميص « يوسف » ما يدعو الى الريبة ، وكان ناضجا واعيا حكيما ، نطق بقياسه المنطقى ودليله البيانى وقطع بذلك كل فرصة للتهرب (والزوغان) ....

مما جعل « العزيز » فورا ودون إبطاء يقول :﴿ إنه من كيدكن﴾وذلك بعد أن بين افتراءها وبراءة « يوسف » وأنزل قياس (الشاهد) على الواقع المادى الملموس .

والذى ذهبنا اليه فى تحقيق الشاهد ، ذهب اليه ايضا كثيرون فلقد رأوا فى هذا المذهب تمشيا منطقيا وحسيا مع أدوار ومراحل الواقعة ، ومن ثم نتائجها .

نفوذ صاحب السلطة و اختلال ميزان العدل

إن أكثر مآسى الأفراد والجماعات ، فى ذواتهم ومصالحهم ، أو ضياع الانظمة والدول ، ثم انقراض الأمم إنما يأتى ويكون بسبب الظلم ، الذى هو نقيض العدل .

فما من سلطان يحيف ،أو بطش يخيف ، أو حاكم نافذ تتقاذف نفسه الأهواء والرغبات ، الا وينقلب تاثيره السيئ على

مجتمعه وعلى من هم تحت سلطانه .

وهذا - ولاشك - ثغرة كبيرة فى الاساس والأصل ، تزداد رقعته اتساعا وخرقه أذى ، فلا يلبث البناء مهما كان شامخا - أن ينهار - ويتهاوى بسببه .

ولقد كان « العزيز »من هذا الطراز ....،حاكما صاحب نفوذ وسلطان على الناس وفى نفس الوقت كان ضعيف الارادة ، أو مسلوبها ، تجاه زوجته (زليخا) ...

كان حاكا ...ومحكوما ....

حاكا على الشعب ، ائتمن على مصالحه فى كل أموره ومعايشه ، وأسباب حياته ..

ومحكوما من قبل زوجته !!!

وحرى بنا أن نقول : بأنه كان محكوما بـ (الهوى) ، على الإطلاق .

لقد ظلت نفسه متأثرة بما قالته زوجته ، حين استبقت التحقيق والشهود ، وأطلقت الحكم على « يوسف » ﴿ **إلا أن يسجن أو عذاب أليم** ﴾ .

وبقى رجع كلماتها ، ورنين صدى عباراتها ، يضج فى أعماقه ، وامتلك عليه نواصى حسه وتفكيره .....،فعلى الرغم من قوله لها : ﴿ **إنه من كيدكن** ﴾

قال فى ضعف وخور ، وانحلال عزيمة ، واختلال حكم :﴿**يوسف أعرض عن هـــذا ...**﴾واطـو الموضـوع فى طى الكتمـــان والنسيان ....

أمـــا أنت يـــا « زليخـــا »ف ﴿ **استغفرى لذنبك** ﴾...،لاأكثر و لاأقل !!!

و(طوى) هو الموضوع ـ الفضيحة ـ تحت جناحى خزيه وذله ، وعاش فى كنف البيت (الموبوء) من جديد ، أياما وليالى ....

ونسأل : ألم يكن يؤرقه اختلال ميزان العدل ، أو على الاقل هاجس الرذيلة والفساد !؟

إنه صورة لبعض الحكام على مختلف مناصبهم ومراكزهم تمثلت فى(العزيز)قد توجد فى غيره ، فى عصره وفى غير عصره !

وإن فى ذلك لعبرة لمن كان له قلب : أو القىالسمع وهو شهيد .

الجاهلية وغمط الحق الى حين :

إن صورة الوليمة التى اقامتها (زليخا) للنسوة من صديقاتها اللواتى لهجن بأمرها مع « يوسف » ؛ والتى كانت نوعا من التحدى لهن إن أطقن التمسك بصوابهن إزاء جاذبية « يوسف » ـ عليه السلام ـ

هذه الصورة تحدد معالم طبقة اجتماعية كانت تعرف آنذاك ب« طبقة السادة » التى كانت تمثل شطيرة من شطائر المجتمع .

(فأولا ، ورأس الامر : طبقة (الحكام ـ الآلهة) ، (وثانيا : طبقة السادة الاشراف) !!(والشرف هنا يعنى نوعية الدم فى العروق وليس السلوك الأخلاقى)

(وثالثا : طبقة (العبيد) ، وهم عامة المجتمع .

والطبقات الثلاث برمتها كانت تحكمها جاهلية العقيدة والسلوك ؛ وفى تفاوت أحياناً ...إذ تقترب إحداها من الحق والعدل أو تبتعد عنها ، تبعاً لما تجرى عليه سنن حياتها ، من وجود نبى أو داعية بين ظهرانيها ، يهديها ويرشدها ويبين لها .

وكانت طبقة « زليخا » مترفة ، مرفهه ... منعمة ، فى قصور وحبور ، فى لذة دائمة من التعاطى الحسى ، ولا ترعى لغير لذتها اعتبارا ولا قيمة ، ولا ترعوى عن سبيل فى بلوغها وتحقيقها ...

طعام وشراب ، وغناء ورقص ، ولهو ومجون ، وعرى واباحة ... واختلاط وفجور ...!!

وكان زوجها(العزيز) وأمثاله من ذوى المناصب والمسئولية الذين يمثلون طبقة (السادة الاشراف) يتعاملون مع الطبقة الدنيا من المجتمع وفق اعراف جاهلية سائدة ، تلف الواقع من شتى نواحيه ، ويكفى أن نقول:بأن (نظام السخرة) كان العنوان التاريخى الذى أثر عنه ، واشتهر ...

و(السخرة) بحد ذاتها تعدم فى الإنسان جميع معالم كيانه البشرى ، ابتداء من عقله الذى كرمه الله تعالى به على سائر المخلوقات والموجودات ، الى بدنه وجسمه ....!

ولا نظن أن بعد هذا الظلم ظلما .

لقد قال (العزيز) لـ « يوسف » :﴿ أعرض ﴾ ،

فامتثل وسكت ، وأطبق فمه فما ينطق بحرف .

وقال لزوجته (زليخا): ﴿ واستغفرى لذنبك ﴾ فلم تفعل ، بل شطت فى رغبتها الجامحة ، واحتدمت فى صدرها ثورة الشهوة مقرونه بلهيب الثأر ....

وزادها هياجاً واضطراما همس النسوة بأمرها ، ثم افتضاح ذلك وانتشاره فى وسطهن فرأت أن تحتال لهن وعليهن كى تلجم ألسنتهن ، وتعطى لنفسها المبرر ....

فلما﴿**قطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا : إن هذا الا ملك كريم** ﴾ قالت (زليخا) لهن :﴿ **فذلكن الذى لمتننى فيه** ﴾ ثم اعترفت ﴿ **ولقد رادوته عن نفسه فاستعصم** ﴾وأضافت تهدد:﴿ **ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين** ﴾ ....

ولابد من مراقبة قولها :﴿ ما آمره .... ﴾بشىء من الدقة والاعتبار ، ولإدراك مدى فاعلية (نظام السخرة) الذى يعطل فى المسخر والمأمور حرية الارادة والاختيار ، كما يصهر كيانه البشرى والإنسانى فى أتون الاستبداد والظلم ...

اتسعت دائرة الفتنة حول « يوسف » ـ عليه السلام ـ ، وأطل تنين الشهوة برءوسه المتعددة ، اذ لم تعد (زليخا) وحدها هى

المرادة ...،فكل واحدة من النسوة (زليخا) ....!
واتجه ـ عليه السلام ـ بكليته الى الله تعالى داعياً ضارعا ، مؤثرا السجن على الصبوة و﴿ **قال : رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه و إلا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم** ﴾ .[1]

ولقد كان السجن مصرفا من مصارف العصمة وسبيلا للخلاص ...،حقيقة ..،

حيث ظنه أهل الجاهلية ـ غباء ـ أنه مباءة لهم ومنتفع ، ومكسب وربح ..، إذ آثر (العزيز) تحت ضغط الغيرة الكاذبة والتستر الخادع أن يقصى « يوسف » عن ميدان التجاذب والجلجلة، الى (جب) عميق آخر تكتنفه الظلمة ، ويجلله الظلام ، ويحكمه الصمت ..،الى مقبرة الاحياء ...، الى السجن !!

وبهذا (الدفن) المؤقت تراءى للجاهلية أنها انتصرت .

ولكن الى متى تستمر جولة الباطل ؟!

---

(١) الايتان : ٣٣ ،٣٤ من سورة يوسف

إعادة التحقيق :

واعادة التحقيق فى بعض القضايا اسلوب قانونى ، يعتبر اللجوء اليه والشروع فيه حقا للمتهم إذا مابدا فى أفق الدعوى دليل له أهميته فى كشف الغموض ، إذا كان هناك غموض ، أو تقويم الخطأ فى الحكم ، ولو بعد صدوره ، انصافا للحقيقة والعدل .

ولقد كان من شأن قضية « يوسف » ـ عليه السلام ـ مع (زليخا) أن يعاد التحقيق فيها ، ليرفع عن كاهل الانسان المظلوم عبء الضغط الجاهلى وكابوس الاستبداد ؛وليسود الحق والعدل .

كل ذلك ، بأسبابه ووقائعه ونتائجه ، كان بتدبير من الله تعالى ، جل جلاله ليكون من بعد للعالمين عبرة وعظه ونذيرا ، ودرسا قيما بليغا ، تنضبط به مسيرة الحياة بالبشر ، حسب القانون الالهى والناموس الكونى السرمدى ، ثم ليظل (الميزان) الذى أنزله ـ تعالى ـ هو السلطان ، معتدلاً غير مختل ....، و: ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾

فبعد سنوات من السجن ، غطت بمساحتها الزمنية المتطاولة رقعة واسعة من العمر ، بل أعمار جميع الأشخاص

الرئيسيين والثـانـويين فى القضيـة ، وحفلت بكثير من الحـوادث والوقائع ..، أعيد التحقيق !

ولكن بمقـدمـات واسبـاب ودواع ..، عرضنـا لهـا حين عرضنا (لموضوع الرؤيا) ومنزلتها فى حياة الصديق « يوسف بن يعقوب » ـ عليهما السلام ـ

لقـد آتت سنـوات السجن اكلهـا : رسـوخـا فى الايمـان ، وصبراً على البلاء وصقلاً للجـانب النبوى فى ذات« يوسف »ـ عليـه السلام ـ ...، ورجحـانـا لكفـة الحـق فى ميزان العـدل ؛ لقـد كانت الجاهلية تضغط بكل ثقلها وجبروتها ، معطيات سلطانها ، فأمالت كفتهـا ..، وزين لهـا الشيطـان سـوء مـا صنعت ، فـأخلـدت الى الاسترخاء ، وراحت فى ثبات عميق .

واذا بالمنبه يقرع مدويا فى الاسماع والضمائر ويجلجل :

﴿ **ما بال النسوة اللاتى قطعن ايدهن ....؟؟**﴾ ويعقب فى غير ما ظلم أو افتراء :﴿ **إن ربى بكيدهن عليم** ﴾

ويعاد التحقيق ...

فيسأل الملـك النسوة : ﴿**مـا خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه ....؟**﴾ ؟

الاعتـــراف :

يقال فى الفقه القانونى : ان الاعتراف سيد الادلة ...

وفى قضية كقضية « يوسف »ـ عليه السلام ـ و(زليخا) ، وفى قصة قرانية لنبي كريم ، تـذكر فى معرض العبرة والموعظـة ، وتسمـو فى دلائلها وأغراضها ..،لابد أن تسمو أيضا فى أدلتها ، فترتفع قرينـة البراءة والطهـارة ، ونصـاعـة اليـد والموقف ، الى أن يكون (الاعتراف) ، الذى هو سيد الادلة .

ورد النسوة على المحقق....

واى محقق ؟! إنه الملك !!!

ألم اقل لك ـ عزيزى القارئ ـ إن القضية فى مستواها عالية سامية ؟!. فلا بد أن تبلغ المدى المطلوب ، والعلو اللازم ، والمقام المناسب .

ورد النسوة:﴿ قلن : حاش لله ...﴾ ونعوذ به سبحانه أن نفترى الكذب : ﴿ ما علمنا عليه من سوء﴾ لا فى القول ولا فى الفعل ...
ولم تجد (زليخا) التى أدركها اليأس ، وتخلى عنها شيطانها ، بدا من (الاعتراف) فقـالت : ﴿ **الآن حصحص الحق أنا**

راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ .

وأراك عزيزى القارئ - تحس فى أوتار حسك ومشاعرك هزة (الحصحصة) كذلك فى سمعك ووجدانك فهذا التعبير القرانى العظيم يتناسب ويتناسق مع صدمة الحق للباطل ودحره ...

وأعلنت البراءة على الأشهاد ، وانتصر العدل ، واستقام الميزان .

الفصل الخامس

من أدواء العصر ...،وعبرة الدهر :

قال الله تعالى : ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالباب** ﴾(١)

وقال ـ عز من قائل ـ : ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك، وجاءك فى هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾(٢)

صدق الله العظيم

يخطىء كل الخطأ من يظن ولو للحظة واحدة ، أن العصور الإنسانية ، منذ زمن آدم ـ عليه السلام ـ الى يومنا هذا تختلف فى مضامينها وقيمها الإنسانية ، أو الأدواء والأمراض التى تصيبها بين حين وآخر ...

بل إنها واحدة وعلى سمت واحد ، لأن شاغل حيزها والراتع فى أرجائها واحد أيضا هو الانسان .

---

(١) من الاية : ١١١ سورة يوسف

(٢) الآية ١٢٠ من سورة هود

نعم ....، قد تختلف أشكال معطياتها المادية وصورها الحسية ، ومعالم الحياة ووسائل المعاش فيها ، ولكنها تظل من غير ريب أو شك ذات جذر واحد ،

وعليه فإن العبرة فى قصص الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا تقتصر على عنصر أو زمن معين ، بل تنسحب على مدى الدهر لتكون لكل الخلق من بنى ادم هداية ونورا ونهجا قويما لا يزيغ بهم ولا يوردهم الا مواطن الكرامة والعزة فى الدنيا ، والنعيم فى الاخرة .

ولئن كان حديثنا وموضوعنا مع قصة « يوسف » ـ عليه السلام ـ و(زليخا) لا يتناول كل أطراف حياته ومجريات عمره فإنه من البتر أو الاجتزاء ، حين نتحدث عن (العبرة) أن نتقوقع فى قالب جزئية أو فصل لا تفيدنا الا بقدرها ....، علماً بان مجتمعنا الاسلامى ـ بل الانسانى ـ أحوج ما يحتاج اليوم الى كل العبره البالغة والمواعظ السامية التى حفلت بها حياة « يوسف » عليه السلام ـ من أولها الى آخرها .

ذلك أن قصته بكليتها مورد غزير المادة لمن يريد أن يستنبط الأخلاق الفاضلة ، والطهارة الحسية والمعنوية بأجلى صورها ، ويشرح فائدة الاستقامة على المبادئ الحقة وأثرها فى النفس وفى المجتمع ، كما أنها موضع درس عميق فى علم النفس ، ولا

أعتقد أن أى عالم نفس يكون مسرفا إذا ما وضع فى مبادئ الأخلاق وعلم النفس كتاباً وافيا ، مرجعه فيه سورة « يوسف » - عليه السلام - ، وجعل أحوال النبى الصديق ، وماحصل منه وله ، موضع تطبيقها .

وهذه - عزيزى القارئ - بعض الخواطر التى سنحت فى الفكر وفاض بها الخاطر :

(أ) إن طيب الأرومة والأصل ، ونقاء المحتد ، اذا ما آزره طيب البيئة ، ووجد الانسان فى تلك البيئة زمناً كافياً ، فإن ذلك يجعله على أكمل الأوصاف وأروع الخصال ، ويصيره خيراً محضاً ، لا شر فيه أبداً ، ويكون الإحساس بالشرف عنده ، على الدوام ، عامل استمساك بالفضيلة ، وحافزا على المروءة .

ف« يوسف » - عليه السلام - غذى بدر النبوة ، وارتضع آفاويق الرسالة ، نشأه أبوه على التقوى ، وحصنه بالصلاح ، وتعهده بالاخلاق الكريمة فنشأ أصلح نشأه وأحس منذ يفاعته بمجد آبائه وأجداده ، إذ كان أبوه يذكره بأولئك المصطفين الأخيار الأبرار الأطهار ، ويمنيه أن يلحق بهم ...

﴿ و كذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك

(ب)وشب« يوسف » ـ عليه السلام ـ على أكمل الأوصاف ، عاملا بما علم من آبائه وأجداده ، ـ صلوات الله وسلامه عليهم .

فكفه ذلك عن اتباع الشهوات ، بل حصر فكره وعمله فى موجبات الفلاح ، لا جرم أن الله تعالى زاده علماً على علمه ، وفتح بصيرته، وغرس فى وجدانه فطنة ثاقبة ، وعلمه من تأويل الأحاديث ...فلا يأتيه أحد يقص عليه رؤياه إلا أتاه بتأويلها على وجهه ، كفلق الصبح !!!وذلك من شدة الملاحظة وثقوب الذهن ومعرفة موارد الأمور ومصادرها ، مع عون الله تعالىله....

(ج) إن رسوخ الإيمان بالمبدأ ، يأتى من واء كل بلاء فى سبيله ، وصبر على هذا البلاء فهو يسهل على صاحبه ملاقاة الصعاب ومواجهة العواصف ، واحتمال الأخطار فى الثبات على المبدأ الحق .

فـ « يوسف » ـ عليه السلام ـ الفتى الغض الاهاب ، المشتعل جمرة الشباب ، مع فراغه وارتفاع شأنه فى بيت سيده ...،

---

(١)الاية رقم ٦ من سورة يوسف

ومع نمط الحياة الجديدة التى هو فيها ...، والغنى الوافر الذى ينقلب فى أعطافه ويرغد فى أكنافه ....،

ومعه فى البيت سيدة فى مثل حاله ..هى سيدتهُ الحاكمة عليه ،فى بيئة كلها مغريات ، تدعوه الى نفسها فيعرض ، وتلح عليه فيرفض ، أرادت قسره على الفتنة فأبى ثم غلقت الابواب ولاحقته ..، وشدت ثوبه فاستعصم ونبا ....
كل ذلك استمساكا بمبدأ العفاف والتقوى ،وحذرا من أن يكون عار ابائه وأجداده الذين علم منهم العزوف عن كل ما يشينهم أو يخل بأوامر دينهم ونواهيه ، وحفاظا لسيده الذى أكرم مثواه وأحله محل الولد ، ومقابلة النعمة بالكفران ليس من دأبه ولا دأب اسرته ، وهى لا تصغى لعظه ولا تسمع لنصيحة ولا ترعوى عن غى كل ذلك ينبئ عن نفس كريمة وروح طاهرة وعزيمة صماء لاتسمع رقى الغواية و لا تجيب داعى الجهاله

(د)الالتجاء الدائم الى الله عند الابتلاء ....

فقد اعتمد « يوسف » عليه السلام ـ علىالله تعالى عند كل ضائقة ، والتجأ اليه عند كل معضلة فإن النسوة حين رأين « يوسف »أكبرنه ، وشدهن لمرآه ، وبعد أن كن

عادلات لاحيات لامراة العزيز، عدن عاذرات وراودنه لها ولأنفسهن ...

وحين توعدته امراة العزيز قائلة : ﴿**ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين**﴾ لجأ عليه السلام الى الله مستغيثا خائفاً وجلاً،قائلا:﴿ **رب السجن احب الى مما يدعوننى اليه والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين** ﴾ .

ففرج الله عنه ما نزل به ، فصرف عنه كيدهن وصبوتهن .

(هـ)الدعوة الى الله تعالى ....ولو فى أحلك الساعات .

فالمؤمن يبدأ من المبادئ ـ حق الايمان ـ لا يترك فرصة تمر دون أن يدعو لمبدئه الذى تغلغل فى أعماق نفسه ، ويبشر به ...

فقد اهتبل « يوسف » ـ عليه السلام ـ فرصة احتياج رئيس الخبازين ورئيس السقاة اليه فى تفسير رؤيا كل منهما، فأخذ يدعوهما الى دينه بعد أن أبان لهما قدرته على تعبير كل رؤيا ..،ولو كانت الرؤيا طعاما يرزقانه لنبأهما بتأويله قبل أن يأتيهما ذلك الطعام .

ثم اخذ يبين لهما أن ذلك من تعليم إلهه ...،ومجانبته ملة الأقوام الذين لا يؤمنون بالله واليوم الاخر ، واتباعه ملة إبراهيم واسحق ويعقوب ، ثم أخذ يبين شناعة ما عليه أهل مصر من تعديد الالهة وتكثير الأرباب ، وأن دينه دين التوحيد هو الدين القيم ، ولكن الناس فى غفلة عنه .

وعلى هذا ....

فينبغى على كل واحد من الدعاة أن يكون نهازا للفرص لبث عظاته ونصائحه وإرشاده فى الانفس ، وإذالم تعرض له فرصة خلقها ....

(و)الرزانة والمحافظة على الشرف ....

ان أحدا من الناس ، سوى « يوسف » ـ عليه السلام ـ ، إذا كان مظلوما أو غير مظلوم ، وجاءه أمر الافراج والخروج من السجن ، لابد أن يبادر الى الخروج منه مغتبطا بذلك اى اغتباط ...، ولكن « يوسف »كان عنده خلق الإباء والشمم ، وشرف نفسه وطهارتها آثر عنده من الخروج من السجن ....

لم يشأ أن يقال عنه مجرم سر منه الملك فعفا عن جريمته وأخرجه من السجن !!!بل أبى أن يخرج الا بعد أن

يثبت أنه برىء الساحة نقى الصحيفة ، فأرسل الى الملك يبسط ظلامته ، ويطلب اليه إعادة التحقيق فى جريمته ....، فلما اجرى الملك التحقيق على وجهه وظهرت براءته ، رضى بالخروج من السجن مرفوع الرأس ....

والشمم والإباء يحملان المتصف بهما على مجانبة كل مايمس شرفه أو يدنس نفسه ، ذلك أن نفس الإنسان أعز عليه وآثر عنده من كل شيء .

يقول بعض العلماء :

إن الانسان لا يحب اصدقاءه وخلانه الا لأنه يجد فيهم لذة نفسه، يرتاح اليهم ويجد سلوته بالقرب منهم ، فمحبة الاحباء اثر من اثار محبة الانسان لنفسه ، فاذا كانت نفس انسان عنده بهذه المنزلة من المحبة والإكبار والإعظام ،لاجرم أن غرامه بنفسه يدعوه اذا كان من أهل الكرامة الى أن يطهرها من الأدناس، ويحرص الحرص كله على أن تكون صفحة حياتها متلألئة لامعة ، لايشوبها شيءمن النقائص والخسة .

هكذا كان « يوسف » ـ عليه السلام ـ وهذا هو الذى حمله على الإباء من مزايلة السجن الى أن تنجلى عن ساحة شرفه تلك الغمامة التى كانت مخيمة على صفحة كبيرة من صفحات حياته فلما انجلت خرج من السجن خروج السيف جلاه صيقله .

(ز)خلق الصبر وفضيلة الشكر

كان « يوسف » ـ عليه السلام ـ متحليا بخلق الصبر ....

والصبر : هو حبس النفس على ماتكره ، وهو من خواص الإنسان التى تميز بها عن سائر الخلق ، والحيوانات بالذات ، لأن البهائم لا تحبس نفسها عن شهوة من الشهوات كالغذاء وغيره ،ولا تنظر فى عواقب شيءمن مشتهياتها ، بل هى اسيرة شهوتها الحاضرة فقط ، ولا تحبس نفسها عنها أصلا .

وللصبر مسميات ومميزات تتباين وفق متعلقاتها .....

فإن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج ، سمى (عفة) وإن كان على احتمال مكروه أو مصيبة سمى (صبرا) ؛ وضده : الجزع والهلع .

وإن كان صبراً فى احتمال فتنة الغنى والمال ، بأن يجاوره بالشكر ، سمى : (ضبط النفس) ....، وإن كان فى الحروب وملاقاة الأهوال سمى : (شجاعة) ..، وإن كان عند موجبات الغضب سمى (حلما) وإن كان عند نائبة من نوائب الزمان سمى(سعة الصدر) ....وإن كان بإخفاء كلام يسوء غيره ظهوره ، سمى : (كتمان سر) وإن كان على القدر

اليسير من حظوظ الرزق سمى : (قناعة)، وإن كان على فضول العيش والاقتصار على أقل القوت سمى(زهدا) ....

ولقد ضرب « يوسف » ـ عليه السلام ـ اروع المثل واعلاه ، على كثير من ألوان وأنواع الصبر ....

منها ـ مثلا : صبره على إيذاء إخوته له، وصبره على السيارة الذين باعوه رقيقا ، بعدما التقطوه وكانوا فيه من الزاهدين؛ وصبره على نعمة الله تعالى عليه فى بيت العزيز إذ جاورها الشكر والحمد ؛ وصبره على شهوة الفرج وقد تبدت له فى جيش لجب من المغريات ، وصبره على السجن وعذابه حيث مسته البأساء والضراء ، فحالف الصبر الجميل وسعة الصدر ،

و« يوسف » ـ عليه السلام ـ هو القائل :﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ (١)

وكان يوسف ـ عليه السلام ـ متحليا بفضيلة الشكر ...

والشكر هو معرفة النعمة الحاصلة من المنعم ، والفرح بها ، والقيام بمقصود المنعم ، والعمل بما يحبه ، وهذا الخلق عزيز فى

---

(١) الاية ٩٠ من سورة يوسف

الناس .

لكن « يوسف » ـ عليه السلام ـ يختم تحقيق رؤياه التى كانت محور حياته ، كما أراها له ربه ـ سبحانه ـ ، بقوله :

﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد احسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾

ثم يختم قصته كلها بقوله :

﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ .

ب الخاتمة

لقد تقلب « يوسف » ـ علية السلام ـ فى حالين : بؤس ورخاء ، وتداولته أيدى ريحين : زعزع ورخاء ...

وهو .....كالذهب الإبريز ، لايزيد على التقلب فى النار إلا صفاء ، أو كالياقوت لاتؤثر فيه النيران ،

فبينما هو فى كنف أب يؤثره بالكرامة ويحوطه بالمحبة ، ويخاف عليه من الليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ....إذا هو فى يد إخوته يسلفونه الإهانة والمذلة ..،ويلقونه فى غيابة الجب ...،وبينما هو على هذه الحال إذا هو يشم نسيم الحياة من جديد ، ولكنها حياة الرق والعبودية ..، وينتقل من ثم الى عبودية اخرى فى بيت العزيز ....أشبه بالحرية !!!ثم إذا هو فى السجن من غير ذنب ولا جريمة ..،واذا هو فى السجن داعية الى الله تعالى ، يبشر ويصلح ، ويحدث ويؤول ....، ويرتفع الى جنب الملك وزيراً ومسئولا عن الاقوات والأرزاق والأموال ..،

لقد قاربت صورة النهاية من التكامل ...
فبينما هو على هذه الحالة لا ينقصه إلا أن يشاهد أبويه

ويجتمع بأهله ، إذا هو بإخوته قد وقعوا فى شركه ، فداعبهم أجمل مداعبة ، وعبث عبثا كله الجد ، واحتال عليهم حتى أتوه باخيه لأمه وأبيه ، ثم جاءوا بأهله وأهلهم أجمعين .

هذه القصة ... عبرة وعظة بالغة ، فى كل لفتة وحركة وكلمة ولكن لا تلمحها كل عين ولا تدركها كل بصيرة ، ولكنها كما قال فيها تعالى :

﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالباب ﴾ .

نسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا وتعلمنا ، والحمد له فى الأولى وفى الآخرة .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
(الفصل الأول)	
الحادثة فى القران الكريم	٩
تفسير وبيان	١١
(الفصل الثانى)	
الرجل والمرأة	٣٥
يوسف (عليه السلام)	٣٧
وزليخا والعزيز	
العصمة والبرهان	٤٥
(الفصل الثالث)	
الرؤيا بداية ونهاية	٥٣
الرؤيا بين المحنة والمنحة	٦١
معجزة تأويل الأحاديث	٦٥

الموضوع	الصفحة
(الفصل الرابع)	
الدعوى	٧٣
التحقيق والشهود	٧٥
نفوذ صاحب السلطة واختلال ميزان العدل	٧٨
الجاهلية وغمط الحق	٨١
إعادة التحقيق	٨٥
الاعتراف	٨٧
(الفصل الخامس)	
بين أدوار العصر وعبرة الدهر	٨٩

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٥٥٨ / ١٩٨٤